لأول مرة فى مصر

النص الكامل لرائعة نجيب محفوظ .. أولاد حارتنا

بعد ٣٥ عاما من غيا ا عن الشعب المصرى

****

التفاحة الحلال :

لمـاذا هذه الرواية بالتحديد: لأ ا واسطة العقد فى أعمال الكاتب المصرى العربى العالمى نجي محفوظ التى خصتها لجـنة نـوبل بالتحـية فى بيا ا بفوز نجيب محفوظ بجائز ا عام ١٩٨٨ . وهى الدرة التى صارت "التفاحة المحرمة" التى اسـتمتع ـا العالم كله، ماعدا المصريين ، منذ أوصى تقرير سرى أعدته لجنة الأزهر -تتكون من الشيخ محمد الغزالى والشيخ أحمد الشرباصى والشيخ محمد أبو زهرة - بمصادرتا ووقف نشر حلقا ا فى "الأهرام" عام ١٩٥٩ن لتصبح - من تلك اللحظة "محور صراع" خفى حينا ومعلن حينا ، بين قوى الوراء وقوى الأمام.

ولماذا هذه الرواية الآن ؟

لأن مـبدعها الأصـيل يرقد حاليا فى مستشفى هيئة الشرطة مصابا بمطوة فى رقبته ، صنعة ا شقى من الأشقياء الذين قال لهم فقهاء الحاكمية أن "أولاد حارتنا" رواية ملحدة وصاحبها ملحد لابد من استتابته أو قتله .

الآن " لأنـنا ـديها له على سريره لعينيه المضببتين بالمياه البيضاء لذراعه اليمنى التى تعانى (بعد أن خطت أحلى الصفحات فى سجل الأدب البديع) ضمورا وضعفا لشرايينه التى لتلتئم بصعوبة ثلاثة وثمانين عاما.

ولماذا الأهالى ؟

لأ ـا كانت وستظل دوما جريدة الاستنارة والتقدم ومنبرا فى طلعية المنابر التى تقاوم فقه الجنازير والحلكة وهى الجريدة التى تجل قممنا الفكرية السامقة -حتى لو اختلفت بعض الآراء فى بعض القضايا.

ولأ ـا أردت أن يعرف الشعب كله أن ا از الرواية بالإلحاد ا ام زائف ومغرض لاينطبق على نص يجسد دراما حركة البشر جميعا فى أثواب مجازية ورؤى رمزية، أبعد ما تكون عن المضاهاة الحرفية بين التاريخ الدينى والتاريخ الرمزى لمسيرة القيم الكبرى الثلاث : الحق ، والعدل، والحرية.

الأهالى : لأ ا تؤكد أن الإبداع جدير بحرية المبدعين وتؤكد أن "الدين لله والوطن للجميع".

تبقى كلمة أخيرة حول ضجة مثارة بشأن النشر الآن .. وفى صحيفة .. إ ا مغامرة / ولكنها ليست مقامرة.

مغامـرة لأن هذه هى المرة الأولى فى تاريخ الصحافة فى العالم التى تقوم فيها صحيفة بنشر نص روائى كامل دفعة واحدة وفى الحجم العادى للصحيفة .

ولكن هذا العمل يستحق هذه المغمرة المحسوبة فإذا لم تغامر دفاعا عن نجيب محفوظ فمن أجل من نغامر؟

لقـد حجبوا "أولاد حارتنا" دون وجه حق عن القارئ المصرى ، فمن الذى جعل هؤلاء "الحاجبين" أوصياء على الناس فى الأرض؟ ومن الذى أعطاهم سلطة الفصل والقرار فى شئون الأدب والنقد؟

ومـن الذى يستطيع أيا كان وزنه وحجمه أن يصادر حقنا فى أن نقرأ عملاً أدبيا قرأه العالم كله، وتشقى فينا أن هذا العمل "مصادر بليل" فى بيته؟

هل هذا يجوز ؟

لأنه غير جائز قانونا وشرعا ، فإننا قد تحملنا المسئولية كاملة فى الدفاع المشروع عن حق المصرى فى أن يعرف فى أن يقـرأ ويحكم دون وصاية من أحد ودون هوى أو زيغ أو افتئات أتاح لصبية أن ينصبوا أنفسهم أمراء إفتاء، ورجال أدعاء ، وقضاة حكم ، بالتكفير، والقتل.

يقول نجيب محفوظ :

" إن الـذين حاولوا قتلى فسروا لرواية حسب هواهم الشخصى ثم قرروا طبقا لهذا التفسير إننى مرتد يجب إباحة دمه دون محاكمة".

وحتى لا يهدر عقل مصر ولا يستباح ، وحتى نحمى نجيب محفوظ بالأعمال لا بالأقوال، وحتى لا يتكرر مثل هذا العدوان، فإننا نقدم "أولاد حارتنا" هدية نجيب محفوظ إلى تاريخنا الأدبى، نهديها إليها وإلى الملايين.

دره منه ، إليه :

بعـد هذا، هل نحتاج إلى أن نؤكد إننا لا نسطوا على حق ، ولا نتجاهل حقوق ملكية، ولا نسعى إلى "الاستيلاء" على حقوق نحترمها واتفاقات لانعلمها.

ولا نحـتاج إلى أن نقـول : إنـنا ندافع عن نجيب محفوظ بنشرنا هذه الرواية الدرة، ولكننا نقول بأعلى صوت وأوضحه إننا نكسر قيودا لا تجوز على الفكر، إحتراما منا لحرية الفكر والإبداع.

ولـو خطر فى بالنا لحظة أن عملنا هذا يحمل أدنى إساءة لكاتبنا الكبير لما سمحنا لأنفسنا بالفكر مجرد التفكير فيه ومن غير الجائز سياسيا ومهنيا وعلى أى مستوى أن نرمى بأننا نسلك سلوك الناشرين فى بيروت. لسنا كذلك، لم تكن ولـن تكون، ولكننا كنا وسنظل كتيبة مدافعية عن حرية الرآى وعن حق الإبداع، ولذلك وجدنا من الواجب وطنيا ومهنـيا وفكريا وسياسيا أن نقدم "أولاد حارتنا" الآن وليس غدا. دون إهدار لحق أو اعتداء على عقد لأننا أولا وقبل كل شئ لا نبغى ربحا ولا نريد كسبا، ولكننا رأينا أن "نجيب مصر" قد كتب، ومن حق مصر أن تقرأ،، ويكفى ماضاع من سنوات.

ويـا "هرم مصر الرابع" فى عصرنا ، لا نسألك المغفرة للذين طعنوك، ولا للذين حرضوا عليك، ولكننا نسألك المغفرة لأننا اجترأنا عليك وتحملنا مسئولتي أن نطبع هذه الدرة ونقدمها بملاليم لا نبغى ربحا ولا نستهدف كسبا. ونحن نعتـبرها ميراثا حيا للعقل العربى وللثقافة العربةي، نملكه جميعا وندافع عنه وها نحن نؤكد رسالتك وننقل إلى المصريين كلمتك. تحية منك إليهم ومنهم إليك .

وسلمت لنا

ولمصر

وسلمت مصر دائما .

افتتاحية

"الناس تحملوا البغى فى جلد ، ولاذوا بالصبر واستمسكو بالأمل، وكانوا كلما أضر م العسف قالوا: لابد للظلم من آخر ، ولليل من ار، ولنرين فى حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب".

هـذا حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق ، لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذى عاصرته، ولكـنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يرويها كل كما يسمعها فى قهوة حية أو كما نقلت إليه خلال الأجيال، ولا سند لى فيما كتبت إلا هذه المصادر، وما أكثر المناسبات التى تدعو إلى تـرديد الحكايـات ، كلما ضاق أحد بحاله، أو ناء بظلم أو سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصـيتها المتـصلة بالصحراء، وقال فى حسرة هذا بيت جدنا، جميعنا من صله، ونحن مستحقوا أوقافه، فلماذا نجوع وكـيف نظام؟ ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأمجاد، وجدنا هذا لغز من الألغاز عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ أعتزاله أحد، وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشتركت فى إنشائها على أى حال كان يدعى الجبلاوى وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة ا فى الخلاء سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول: "هو أصل حارتنا، وحارتنا أص مصر أم الدنيا، عاش فيها وحده وهى خـلاء خراب، ثم امتلكها بقوة ساعده وم لته عند الوالى، كان رجلاً لايجود الزمان بمثله، وفتوة اب الوحوش ذكره" وسمعت آخر يقول عنه: "كان فتوة حقًا، ولكنه لم يكن كالفتوات الآخرين، فلم يفرض على أحد أتاوة، ولم يستكبر فى الأرض ، وكـان بالـضعفاء رحيما" . ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنـيا. وكنت ومازلت أجد الحديث عنه شائقًا لايمل، وكم جعلنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه ولكـن دون جـدوى وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنط المركب أعلاه، وكم جلست فى صحراء المقطـم غير بعيد من سوره الكبير فلا أرى إلا رءوس أشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت، ونوافذه مغلقة لا تنم على أى أثر لحياة. أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا؟ أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن فى التراب؟ وإذا تساءلت عما صار به وبنا إلى هذا الحال سمعت من فورك القـصص، وتـرددت على أذنيك أسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، ولن تظفر بما يبل الصدر أو يريح العقل، قلت إن أحـدا لم يـره منذ اعتزاله ، ولم يكن هذا بذى بال عند أكثر الناس فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى كثر القيل والقال عنها، ومن هنا ولد ال اع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حـتى اليوم والغد، ولذلك فيس أدعى إلى السخرية المريرة من الإشارة إلى صلة القربى التى تجمع بين أبناء حارتنا . كنا ومازلنا أسرة واحدة لم يدخلها غريب، وكل فرد فى حارتنا يعرف سكا ا جميعا نسءً ورجالاً ومع ذلك فلم تعرف حارة حـدة الخـصام كمـا عرفناها، ولا فرق بين أبنائها ال اع كما فرق بيننا، ونظير كل ساع إلى الخير تجد عشرة فتوات يلوحـون بالنبابـيت ويدعـون إلى القـتال حتى اعتاد الناس أن يشتروا السلامة بالإتاوة، والأمن بالخضوع والمهانة،

ولاحقـتهم العقـوبات الصارمة لأدنى هفوة فى القول أو فى الفعل بل للخاطرة تخطر فيشى ا الوجه وأعجب شئ أن الـناس فى الحـارات القريبة منا كالعطوف وكفر الزغارى والدراسة والحسينية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تدر الخيرات فتوات لايغلبون، كل هذا حق، ولكنهم لايعلمون أننا بتنا من الفقر كالمتـسولين، نعـيش فى القاذورات بين الذباب والقمل، نقنع بالفتات، ونسعى بأجساد شبه عارية، وهؤلاء الفتوات يرو م وهم يتبخترون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب، ولكنهم ينسون أ م إنما يتبخترون فوق صدورنا، ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير ونقول فى حزن وحسرة "هنا يقيم الجبلاوى" صاحب الأوقاف، وهو الجد ونحن الأحفاد.

شهدت :

العهـد الأخـير من حياة حارتنا وعاصرت الأحداث التى دفع ا إلى الوجود "عرفة" ابن حارتنا البار. وإلى أحد أصحاب عرفة يرجع الفضل فى تسجيل حكايات حارتنا على يدة، إذ قال لى يوما: " إإنك من القلة التى تعرف الكتابة، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا؟ إ ا تروى بغير نظام، وتخضع لأهواء الرواة وتحزبا م، ومن المفيد أن تسجل بأمانة فى وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع ا، وسوف أمدك بما لا تعلم من الأخبار والأسرار". ونشطت إلى تنفيذ الفكرة اقتناعا بوجاهـتها من ناحية، وحبا فيمن اقترحها من ناحية أخرى, وكنت أول ن اتخذ من الكتابة حرفة فى حارتنا على رغم ما جـره ذاـك على من تحقير وسخرية، وكانت مهمتى أن أكتب العرائض والشكاوى للمظلومين وأصحاب الحاجات. وعلـى كثرة المتظلمين الذين يقصدوننى فإن عملى لم يستطع أن يرفعنى عن المستوى العام للمتسولين فى حارتنا، إلى ما اطلعنى عليه من أسرار الناس وأحزا م حتى ضيق صدرى وأشجن قلبى، ولكن مهلاً، فإننى لا أكتب عن نفسى ولا عن متاعبى، وما أهون متاعبى إذا قيست بمتاعب حارتنا ، حارتنا العجيبة ذات الأحداث العجيبة، كيف وجدت؟ وماذا كان من أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟

نجيب محفوظ

أدهـ ـ ـم

(١)

كـان مكـان حارتنا خلاء، فهو امتداد لصراء المقطم الذى يربض فى الأفق، ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق، كان سوره الكبير العالى يتحلق مساحة واسعة نصفها الغربى حديقة، والشرقى مسكن مكون من أدوار ثلاثة، ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه بالبهو التحتانى المتـصل بـسلاملك الحديقة وجاء الأبناء جميعا، إدريس ، وعباس ، ورضوان وجليل وأدهم ، فى جلابيبهم الحريرية فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسه، وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنية بعينيه النافذتين كأعين الصقر، ثم قام متجها نحو باب السلاملك، ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقـة المتـرامية الـتى تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعترش فى جنبا ا الحناء والياسمين، وتثب فوق عصو ا مزقزقة العصافير. ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو وخيل إلى الأخوة أن فتوة الخلاء قـد نسيهم، وهو يبدو بطولة وعرضه خلقا فوق الآدميين كأنما من كوكب هبط وتبادولا نظرات متسالة، إن هذا شأنه إذا قـرر أمـرا ذا خطر، وما يقلقهم إلا أنه جبار فى البيت كما هو جبار فى الخلاء وأ م حياله لا شئ. التفت الرجل

نحوهم دون أن يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة فى أنحاء البهو الذى توارت جدرانه العالية وراء ستائر وطنافس.

- أرى من المستحسن أن يقوم غيره بإدارة الوقف.. وتفحص وجوههم رمة أخرى، ولكن لم تنم وجوههم على شئ لم تكن إدارة الوقف مما يغرى قوما استحبوا الفراغ والدعة وعربدة الشباب، فضلا عن هذا فإدريس الأخر الأكبر هـو المرشح الطبيعى للمنصب، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما عنالك، وقال إدريس لنفسه: " يا له من عبء ، هذه الأفكار لا حصر لها، وهؤلاء المستأجرين المناكيد" أما الجبلاوى فاستطرد قائلا :

- وقد وقع اختيارى على أخيكم أدهم ليدير الوقف تحت إشرافى.

عكـست الوجـوه وقع مفاجأة غير متوقعة، فتبودلت النظرات فى سرعة وانفعال، إلا أدهم فقد غض بصره حياءً وارتباكًا ، وولاهم الجبلاوى ظهره وهو يقول فى عدم اكتراث:

- لهذا دعوتكم .

تفجر الغضب فى باطن إدريس فبدا كالثمل من شدة مقاومته ونظر إليه إخوته بحرج، ودارى كل منهم -عدا أدهم طـبعا- غضبه لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطى إدريس، الذى كان تخطيا مضاعفا لهم، أما إدريس فقال بصوت هادئ كأنما يخرج من جسم آخر:

- ولكن يا أبى .

قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم :

- ولكن ؟

فغضوا الأبصار حذرا من أن يقرأ ما فى نفوسهم ، إلا إدريس فقد قال بإصرار :

- ولكننى الأخ الأكبر .

فقال الجبلاوى مستاء :

- أظن أننى أعلم ذلك ، فأنا الذى انجبتك .

فقال إدريس وحرارة غضبه أخذة فى الارتفاع :

- للأخ الأكبر حقوق لا تهضم إلا لسبب .

فحدجه الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال :

- أوكد لكم إنى راعيت فى اختيارى مصلحة الجميع .

تلقى إدريس اللطمة بصبر ينفد إنه يعلم كما يضيق أبوه بالمعارضه، وإن عليه أن يتوقع لطمات أشد إذا تمادى فيها، ولكن الغضب لم يدع له فرصة لتدبر العواقب، فأندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم، وانتفخ كالديك المزهو ليعلن للأبـصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه وبين أخيه، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق عند العطس بغير ضابط :

- إنى وأشقائى أبناء هانم من خيرة النساء، أما هذا فإبن جارية سوداء.

شحب وجه أدهم الأسمر دون أن تند عنه حركة، على حين لوح الجبلاوى بيده قائلا بنبرات الوعيد :

- تأدب يا إدريس .

ولكن إدريس كانت تعصف به عواصف الغضب المنونة فهتف :

- وهو أصغرنا أيضا، فدلنى على سبب يرجحنى به إلا أن يكون زماننا زمان الخدم والعبيد؟

- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل .

- إن قطع رأسى أحب إلىّ من الهوان .

ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمة :

- نحـــن جميعا أبناؤك، ومن حقنا أن نحزن إذا افتقدنا رضاك عنا. والأمر لك على أى حال.. وغاية مرامنا أن نعرف السبب .

وعدل الجبلاوى عن إدريس إلى رضوان، مروضا غضبه لغاية فى نفسه ، فقال :

- أدهم على دراية بطباع المستأجرين ويعرف أكثرهم بأسمائهم، ثم إنه على علم بالكتابة والحساب.

وعجب إدريس من قول أبيه كما عجب أخوته، متى كانت معرفة الأوشاب ميزة يفضل من أجلها إنسان، ودخول الكـــتاب أهـــون ميـــزة أخرى؟ وهل كانت أم أدهم تدفع به إلى الكتاب لولا يأسها من فلاحه فى دنيا الفتوة. وتسأل إدريس متهكما :

- اتكفى هذه الأسباب لتبرير ما يراد بى من مذلة؟

فأشار الجبلاوى نحوه بضحر وقال :

- هذه إرادتى ، وما عليك إلا السمع والطاعة.

والتفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء إدريس وهو يسأل ؟

- ما قولكم ؟

فلم يحتمل عباس نظرة أبيه، وقال وهو وأجم :

- سمعا وطاعة .

وسرعان ما قال جليل وهو يغض طرفه :

- أمرك يا أبى .

وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف .

- على العين والرأس .

عند ذلك ضحك إدريس ضحكة غضب تقلصت إلى أساريره حتى قبحت وجهه وهتف :

- يا جبناء .. ما توقعت منكم إلا الهزيمة المزرية، وبالجبن يتحكم فيكم ابن الجارية السوداء.

فصاح الجبلاوى مقاطعا عن عينين تتطاير منهما النذر :

- إدريس !

ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بدوره :

- مـا أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين.

اقترب الجبلاوى خطوتين فى بطء كالتوثب، وقال بصوت منخفض وقد أنذرت أساريره المتقبضة بالشر:

- اقطع لسانك .

ولكن إدريس واصل صياحه قائلا :

- لن ترعبنى ، أنت تعلم أننى لا أرتعب، وأنك إذا أردت ان ترفع ابن الجارية على فلن أسمعك لحن السمع والطاعة.

- ألا تدرك عاقبة التحدى يا ملعون ؟

- الملعون حقا هو ابن الجارية .

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول :

- إ ا زوجتى يا عربيد، فتأدب وإلا سوت بك الأرض.. وفزع الأخوة وأولهم أدهم لداريتهم ببطش أبيهم الجبار ، ولكن إدريس كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطرا كأنه مجنون يهاجم نارا مندلعة، فصاح :

- إنـك تبغـضنى ، لم أكن اعلم هذا، ولكنك تبغضنى دون ريب، لعل الجارية هى التى بغضتنا إليك، سيد الخلاء وصـاحب الأوقاف والفتوة الرهيب، ولكن جارية استطاعت أن تعبث بك، وغدا يتحدث عنك الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء.

- قلت لك اقطع لسانك يا ملعون .

- لا تـسبنى مـن أجـل أدهـم طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ، وقراراك الغريب سيجعلنا أحدوثة الأحياء والحوارى .

فصاح الجبلاوى بصوت صك الأسماع فى الحديقة والحريم .

- أغرب بعيدا عن وجهى .

- هذا بيتى، فيه أمى ، وهى سيدته دون منازع .

- لن ترى فيه بعد اليوم وإلى الأبد .

واكفهـر الـوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل فى احتدام فيضانه، وتحرك صاحبه كالبنيان مكورا قبضة من صوان، وأيقـن الجميع أن إدريس قد انتهى، ما هو إلا مأساة جديدة من المآسى التى يشهدها هذا البيت صامتا. كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يمل على ظهره العارى أثار سياط حملت أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه والرعاية التى تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وإن عز جانبه عـند الغـضب لهذا أيقن الجميع إن أدريس قد انتهى حتى إدريس بكرى الواقف ومثيله فى القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلاوى خطوتين أخريين وهو يقول :

- لا أنت أبنى ولا أنا أبوك، ولا هذا البيت بيتك، ولا أم لك فيه ولا أخر ولا تابع، أمامك الأرض الواسعة فاذهب مصحوبا بغضبى ولعنتى وستعلمك الأيام حقيقة قدرك وأنت يم على وجهك محروما من عطفى ورعايتى.

فضرب إدريس البساط الفارسى بقدمه وصاح :

- هذا بيتى ولن أغادره .

فـأنقض عليه الأب قبل أن يتقيه، وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة، ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقرا ، فعبرا بـاب الـسلاملك وهبطا السلم وإدريس يتعثر ثم اخترق به ممرا تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجا وأغلق الباب وصاح بصوت سمعه كل من يقيم فى البيت .

- الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها .

ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى :

- وطالقة ثلاثا من تجترئ على هذا .

(٢)

مـنذ ذاـك اليوم الكئيب وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف فى المنظرة الواقعة إلى يمن باب البيت الكبير، وعمـل مة فى تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه، وأبدى فى معاملة المستأجرين لـباقة وسياسـة ، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكسة وفظاظة, وكانت شروط الواقف سرا لايدرى به أحـدا سوى الأب، فبعث اخيار أهم للإدراة الخوف أن يكون هذا مقدمة لايثاره فى الوصية، والحق أنه لم يبد من الأب قـبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه، وعاش الأخوة فى وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته، حتى إدريـس -على قوته وجماله وأسرافة أحيانا فى اللهو- لم يسئ قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخوته، كان شابا كريما حلو المعـشر حائزا الود والإعجاب ، ولعل الأشقاء الأربعة كانوا يضمرون لأدهم شيئا من افحساس بالفارق بينهم وبينه، ولكـن أحـدا منهم لم يعلن هذا ولا اشتم منه فى كلمة أو إشارة أو سلوك، ولعل أدهم كان أشد غحساسا منهم ذا الفـارق، ولعله قارن كثيرا بين لو م المضئ ولونه الأسمر، بين قو م ورقته، بين سمو أمهم ووضاعة أمه، ولعله عانى من ذاـك أسى مكتوما والما دفينا، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيئ بالاستقرار فى نفسه ، فنشأ صافى القلب والعقل.

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف :

- باركينى يا أمى ن فما هذا العمل الذى عهد به إلى غلا امتحان شديد لى ولك .

فقالت الأم بضراعة :

- ليكن التوفيق ظلك يا بنى، أنت ولد طيب والعقبى للطيبين.

ومضى أدهم إلى المنظرة ترمقه العيون من السلاملك والحديقة من وراء النوافذ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عملـه ، وكان عمله أخطر نشاط إنسانى يزاول فى تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقا والقاهرة القديمة غربا ،

واتخذ أدهم من الأمانة شعارصا وسجل كل مليم فى الدفتر لأول مرة فى تاريخ الوقف، وكان يسلم أخوته رواتبهم فى أدب ينسيهم مرارة الحنق ثم يقصد أباه بحصيلة الأموال وسأله أبوه يوما:

- كيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بخشوع :

- ما دمت قد عهدت به إلى فهو أعظم ما فى حياتى.

فشاعت فى الوجه العظيم البشاشة، إذ أنه على جبروته كان يستخفه طرب الثناء، وكان أدهم يحب مجلسه، وإذا جلس إليه اختلس منه نظرات الإعجاب والحب، وكم كان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروى -له ولأخوته- حكايات الزمان الأول ، ومغامرات الفتوة والشبابا إذ هو ينطلق فى تلك البقاع ملوحا بنبوته المخيف غازيا كل موضع تطأه قدماه وبعد طرد إدريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادة من الاجتماع فوق سطح البيت، يأكلون ويشربون ويقامرون، أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إ لا فى الحديقة، كان عاشقا للحديقة منذ درج، وكان عاشقا للناى، ولازمته تلك العادة بعد اضطلاعه بشئون الوقف، وإن لم تعد تستأثر بجل وقته، فكان إذا فرغ من عمله فى الوقف افترش سجادة على حافة جدول، واسند ظهره إلى جذع نخلة أو جميزة، أو استلقى تحت عريشة الياسمين، وراح يرنو إلى العصافير وما أكثر العصافير أو يتابع اليمام وما أحلى اليمام، ثم ينفخ فى الناى محاكيا الزفزقة والهديل والتغريد ، وما أبدع المحاكاة، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما اجمل السماء، ومر به أخوه رضوان وهو على تلك الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال:

- ما أضيع الوقت الذى تنفقه فى إدارة الوقف!

فقال أدهم باسما :

- لولا إشفاقى من إغضاب أبى لشكوت.

- فلنحمد نحن المولى على الفراغ .

فقال أدهم ببساطة :

- هنيئًا لكم .

فسأله رضوان وهو يدارى الامتعاض بالابتسام .

- أتود أن تعود مثلنا ؟

- خير ما تمضى الحياة فى الحديقة والناى ؟

فقال رضوان بمرارة :

- كان إدريس يود أن يعمل .

فغض أدهم بصره وهو يقول :

- لم يكن عند إدريس وقت للعمل ولاعتبارات أخرى غضب ، أما السعادة الحقة ففى هذه الحديقة تجدها.

- ولما ذهب رضوان قال أدهم لنفسه: "الحديقة وسكا ا المغردون، والماء ، والسماء، ونفسى النشوى هذه هى الحـياة الحقة كأننى أجد فى البحث عن شئ ما هذا الشئ؟ الناى احيانا يكاد يجيب ولكن السؤال يظل بلا جواب، لو تكلمـت هـذه العـصفورة بلغتى لشفت قلبى باليقين وللنجوم الزاهرة حديث كذلك ، اما تحصيل الإيجار فنشاز بين الأنغام".

- ووقـف أدهم يوما ينظر إلى ظله الملقى على الممشى بين الورود، فإذا بظل جديد يمتد من ظله وأشياء بقدوم شـخص من المنعطف خلفه، بدأ الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه. والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء وهى م بالتراجع عندما اكتشفت وجوده فأشار بالوقوف فوقفت وتفحصها مليا ثم سألها برفة.

- من انت ؟

فأجابت بصوت ملعثم :

- أميمة.

إنه يذكر الاسم ، فهو لجارية ، قريبة لأمه، وكما كانت امه قبل أن يتزوج منها أبوه .

ومال إلى محدثتها أكثر فسألها :

- ماذا جاء بك إلى الحديقة ؟

فأجابت مسبلة الجفنين :

- حسبتها خالية .

- - لكن ذلك محرم عليكن .

فقالت بصوت لم يكد يسمع :

- أخطأت يا سيدى .

وتـراجعت حتى توارت وراء المنعطف، ثم ترامى إلى أذنيه وقع أقدامها المسرعة، وإذا به يغمغم متأثرا "ما أملحك!" وشـعر بأنه لم يكن قط أدخل فى خلائق الحديقة منه فى هذه اللحظة ، وإن الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليماما ونفـسه نغمة واحدة وقال لنفسه: "أميمة مليحة" حتى شفتاها الغليظتان مليحتان، وجميع أخوتى متزوجون عدا إدريس المتكبر، وما أشبه لو ا بلونى، وما اجمل منظر ظلها وهو مفروض فى ظلى كأنه جزء من جسدى المضطرب بالرغبات ولن يسخر أبى من اختيارى وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمى؟

(٣)

رجع أدهم إلى إدارة الوقف بقلب مفعم بجمال غامض كالعبير وحاول كثيرا أن يراجع حساب اليوم، ولكنه لم ير فى صفحة عقله إلا السمراء، ولم يكن عجيبا أن يرى أميمة اليوم لأول مرة فالحريم فى هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صـاحبها على نحو ويعيش بفضلها ولكنه لايراها، واستسلم أدهم إلى تيار أفكاره الوردية حتى انتزع منه على صوت مرعد قريب كأنما انفجر فى المنظرة نفسها وهو يصيح :

- أنا هنا ، فى الخلاء يا جبلاوى، العن الكل، اللعنة على رؤوسكم نساءً ورجالاً، واتحدى من لم تعجبه كلماتى ، سامعنى يا جبلاوى؟

وهتف أدهم "إدريس" وغادر المنظرة إلى الحديقة فرأى أخاه رضوان متجها نحوه فى اضطراب ظاهر ، وبادره قائلا :

- إدريس سكران، رأيته من النافذة مختل التوازن من السكر، أى فضائح تخبئ الأقدار لأسرتنا؟

فقال أدهم وهو يغضى ألمًا :

- قلبى يتقطع أسفا يا أخى .

- وما العمل ؟ إن كارثة تهددنا .

- ألا ترى يا اخى أنه يجب علينا أن نحدث أبانا فى الأمر ؟

فقطب رضوان قائلا :

- أبوك لا يراجع فى أمر، وحال إدريس هذه لا شك ضاعفت من غضبه عليه.

فغمغم أدهم فى كآبة :

- ما كان أغنانا عن هذه الأحزان .

- نعم ، النساء يبكين فى الحريم ، عباس وجليل معتكفان من الكدر ، وأبونا وحده فى حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، فتساءل أدهم فى قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه إلى مأزق .

- ألا ترى أنه ينبغى أن نعمل شيئا؟

- يـبدو أن كــل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة، ولايهدد السلامة مثل طلبها بأى ثمن، غير أنى لن اجازف بمركزى ولو انطبقت السماء على الأرض، أما كرامة أسرتنا فتتمرغ الساعة فى التراب فى ثوب إدريس .

لماذا قصدتنى إذن؟ بين يوم وليلة انقلب أدهم غراب بين ينعق وتنهد قائلا :

- إنى برىء من كل هذا ، ولكن لن تطيب لى الحياة إن سكت .

فقال رضوان وهو يهم بالذهاب .

- لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل !

ومـضى راجعا ولبث أدهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة "لديك من الأسباب.." نعم إنه المتهم دون ذنب جناه كالقلـة التى تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها، وكلما أسف أحد على إدريس لعن أدهم، واتجه أدهم نحو الباب ففـتحه فى رفـق ومرق منه . رأى إدريس غير بعيد يترنح ردائرا حول نفسه، يقلب عينين زائغتين، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره، ولا عثرت عيناه على أدهم توثب للانقضاض كأنه قطة لمحت فأرا، ولكن أعجزه السكر، فمال نحو الأرض وملا قبضته ترابا ورمى به أدهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته وناداه أدهم برقة :

- أخى

فزمجر إدريس وهو يترنح .

- خرس يا كلب يا بن الكلب، لا أنت أخى ولا أبوك أبى، ولأدكن هذا البيت فوق رءوسكم.

فقال أدهم متوددا :

- بل أنت أكرم هذا البيت وأنبله .

فقهقه إريس من فيه دون قلبه وصاح :

- لماذا جئت يا ابن الجارية؟ عد إلى أمك وأنزلها إلى بدروم الخدمز

فقال أدهم دون أن تتغير مودته :

- لا تستسلم للغضب ، ولا توصد الأبواب فى وجه الساعين لخيرك.

فلوح إدريس بيده ثائرا وصاح :

- ملعــون البيت الذى لا يطمئن فيه إلا الجبناء الذين يغمسون اللقمة فى ذل الخنوع، ويعبدون مذلهم، لن أعود إلى بــيت أنت فيه رئيس، فقل لأبيك إننى أعيش فى الخلاء الذى جاء منه، وإننى عدت قطاع طريق كما كان وعربيدا أثيما معتديا كما يكون وسيشيرون إلى فى كل مكان أعيث فيه فسادا ويقولون "ابن الجبلاوى" بذلك أمرغم فى التراب يا من تظنون أنفسكم سادة وأنتم لصوص .

وتوسل أدهم قائلا :

- أخى أفق، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم، ليس الطريق مسدودا فى وجهك إلا أن تسده بيدك، وإنى أعدك بأن يعود كل شئ طيب إلى أصله .

فخطا إدريس نحوه بصعوبة كأن ريحا ترجعه وقال :

- بأى قوة تعدنى يا ابن الجارية؟

فقال وهو يرمقه بحذر :

- بقوة الأخوة .

- الأخوةّ قذفت ا فى أول مرحاض صادفنى .

فقال أدهم متألما :

- ما سمعت منك من قبل إلا الجميل .

- طغيان أبيك أنطقنى بالحق .

- لا أحب أن يراك الناس على هذه الحال .

فأرسل إدريس ضحكة معربدة وصاح :

- وسيروننى على أسوأ منها كل يوم ، العار والفضيحة والجريمة ستحل بكم على يدى، طردنى أبوك دون حياء فليتحمل العواقب.

ورمـى بنفـسه نحـو أدهم فتنحى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد إدريس يهوى على الأرض لولا أن استند إلى الجدرار، ولبث يلهث حانقا، وينظر فى الأرض مفتشا عن حجر، فتراجع أدهم بخفة إلى الباب ودخل واغرورقت عيناه من الحزن، وكان صياح إدريس مازال صاخبا، وحانت منه التفاتة نحو السلاملك فلمح أباه خلال الباب وهو يعبر البهو فمضى نحوه وهو لا يدرى، متغلبا على خوفه بحزنه ، ونظر إليه الجبلاوى بعينين لا تفصحان عن شئ ، وكا يقف بقامته المديدة ومنكبيه العريضين أمام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه، وأحنى أدهم رأسه قائلا :

- السلام عليكم .

فتفحصه الجبلاوى بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ إلى أعماق قلبه .

- صرح بما جئت من أجله .

فقال أدهم بصوت مهموس :

- أبى ، إن أخى إدريس ..

فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس فى الحجر :

- لا تذكر اسمه أمامى ..

ثم وهو يمضى إلى الداخل :

- اذهب إلى عملك .

(٤)

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وإدريس يتردى فى مهاوى الشقاوة فى كل يوم يسجل فى كتابه حماقـة جديـدة كان يدور حول البيت ليقذفه فأقذع الشتائم أو يجلس على كثب من الباب عاريا كما ولدته أمه كأنما يتـشمس وهـو يتـرنم بأفحس الأغانى. وكان يتجول فى الأحياء القريبة فى خيلاء الفتوات يتحدى كل عابر بنظرات هجومية ويتحرش بكل من يعترض سبيله، والناس يتحاشونه كاظمين، وهم يتهامسون "ابن الجبلاوى) ولم يحمل لغذائه هما، فكان يمد يده بكل بساطة إلى الطعام حيث وجده فى مطعم أو على عربة، فيأكل حتى يكتظ ثم يمضى دون شكر من ناحية أو محاسبة من الآخرين، وإذا تاقت نفسه إلى العربدة مال إلى أول حانة تصادفه ، فتقدم إليه البوظة حتى يسكر، ثم يـنطلق لـسانه كالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها وتقاليدها السخيفة وجنبها المهين، منوها بثورته على أبيه جبار هذه الأحـياء جميعا ، ثم يدخل فى قافية ليغرق فى الضحك، ويغنى إذا لزم الحال ويرقص وتتناهى مسرته إذا ختمت السهرة بمعـركة، ثم يـذهب مشيعا بالتحيات، وفى كل مكان اشتهر ـذه السيرة فتحاشاه الناس ما استطاعوا، ولكنهم سلموا بأمـره كأنه مصيبة من مصائب الدهر، ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب وغلب الحزن أم إدريس فشلت واحتـضرت، وجاء الجبلاوى ليودعها فأشارت نحو بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها فى أسى وغضب وخيم الحزن على الأسرة كخيوط العنكبوت، فتوالت سمر الأخوة فوق السطح، وسكت ناى أدهم فى الحديقة.

ويمـا تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيتها تلك المرة امرأة إذا تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت، وعلم فى نفس اليوم أن أعرا الحمل ظهرت على المرأة فقررت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها

فبل طرده، وغادرت نرجس البيت وهى تصوت وتلطم خديها، وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها إدريس فألحقها بركابه دون ترحيب، ودون جفاء ، كذلك إذا لم تكن تخلو من نفع عند الحاجة.

على أن كل مصيبة وإن جلت لابد يوما أن تؤلف، لذلك أخذت الحياة تعود إلى مجراها المألوف فى البيت الكبير كما يعود السكان إلى ديارهم عقب زلزال أكرههم على الفرار منها. عاد رضوان وعباس وجليل إلى ندوة السطح كما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجى الناى فيناجيه، ووحد أميمة تضئ خواطره وتدفئ مشاعره وصورة ظلها المعانق لظله ترتسم بوضوح فى مخيلته، فقصد مجلس أمه فى حجرتها حيث كانت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه إلى أن قال :

- إن أميمة يا أمى فريبتك ..

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخير لم تستطع التغلب على عناء مرضها وقالت :

- نعم يا أدهم ، إنها فتاة طيبة ، تصلح لك كما تصلح لها وستسعدك بمشيئة المولى.

ولما رأت تورد البهجة فى وجنتيه استدركت قائلة :

- لا ينبغى أن تدللها يا بنى حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب أباك فى الأمر لعلى أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدركنى الموت.

وعندما دعاه الجبلاوى إلى مقابلته وجده يبتسم ابتسامة لطيفة حتى قال لنفسه : "لا شئ يعادل شدة أبى إلا رحمته". وقال الأب :

- ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن، وهذا البيت يحتقر المساكين ، ولكنك باختيار أميمية، تكرم أمك، لعلك تنجب ذرية صالحة ، لقد ضاع إدريس ، وعباس ، وجليل عقيمان ورضوان لم يعش له ولد حتى اليوم، وجميعهم لم يرثوا عنى إلا كبريائى، فاملأ هذا البيت بذريتك وإلا ذهب عمرى هباءً.

وكانت زفة أدهم التى لم يشهد لها الحى نظيرا من قبل وحتى اليوم يجرى ذكرها مجرى الأمثال فى حارتنا. تدلت ليلتذاك الكلوبات من غصون الأشجار ومن فوق السور حتى بدا البيت بحيرة من نور وسط الخلاء المظلم، وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيات وامتدت موائد الطعام والشراب فى البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل البيت الكبير. وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل سار فيها كل من يحب الجبلاوى أو يخافه حتى انتظم الجميع، وخطر أدهم فى جلبا حريرى لاسة مزركشة بين عباس وجليل، أما رضوان فسار فى المقدمة، وعلى الميني وعلى اليسار حاملوا الشموع والورود، وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين، وتعالى الغناء ، وتبعته تأوهات المطربات وتحيات المعجبين بالجبلاوى وأدهم، حتى استيقظ الحى ودوت الزغاريد وسار الموكب من الجمالية فالعطوف ثم كفر الزغارى والمبيضة، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات، وحطب من حطب ، ورقص من رقص، ووزعت الحانات البوظة مجانا ، فسكر حتى الغلمان، و اوت الجوز من جميع الغرز فى طريق الموكب هدية للمحتفلين فعبق الجو بحسن كيف والهندى.

وفجأة لاح إدريس كما انشقت عنه الظلمة فى أخر الطريق لاح عن المنعطف المفضى إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التى تتقدم الموكب فتوقف حاملوا الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس ولمحته أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفت عن الغناء وراء الراقصون فجمدت أوساطهم وسرعان ما سكتت المزامير، وخرست الطبول،

وغاضـت الـضحكات وتساءل كثيرون عم يفعلون، فهم إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوى ، ولوح إدريس بنبوته وهو يصيح:

- لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟

فساد الصمت واشرأبت الأعناق نحو أدهم وإخوته، وعاد إدريس يتساءل:

- متى كنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء؟

عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلا :

- أخى من الحكمة أن تدع الزفة تمر.

فصاح إدريس مقطبا :

- أنت أخر من يتكلم يا رضوان، أنت أخ خائن وابن جبان، وذليل يشترى رغد العيش بالكرامة والأخوة.

فقال رضوان بإشفاق :

- لا شأن للناس باختلافاتنا ..

فقهقه إدريس قائلا :

- الناس يعلمون بخريكم ، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة زامرا أو منشدا .

فقال رضوان بعزم ثابت :

- أبوك عهد إلينا باخيك ، ولا بد أن نحفظه .

فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل :

- أريت أنك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية؟

- أين رشادك يا أخى؟ بالحكمة وحدها تعود إلى بيتك .

إنك كاذب ، وأنت تعلم أنك كاذب ..

فقال رضوان فى حزن :

- لن ألومك فيما يخصنى ، ولكن دع الزفة تمر بسلام.

فكـان جوابه أن انقض على الموكب الكثور الهائج، وأخذ نبوته يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثـر الـورود ، وراح الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة ، وتكاتف رضوان وعباس وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس.

- يا أنذال ، تدافعون عمن تكرهون خوفا على الطعام والشراب ..

وهجـم عليهم .. فتلقوا ضرباته بنبابيتهم دون أن يردوا عليها وهم يتراجعون، وإذا به يرمى بنفه فجأة بينهم فيثور سبيلا إلى موقف أدهم فعلا الصوت فى النوافذ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفاع عن نفسه.

- إدريس ، لست عدوا لك فارجع إلى عقلك .

ورفع إدريس نبوته، وهنا صاح صائح "الجبلاوى" وصاح رضوان مخاطبا إدريس :

- أبوك قادم .

فـوثب إدريـس إلى جانب الطريق والتفت إلى الوراء فرأى الجبلاوى قادما وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل وعض إدريس على أسنانه ثم هتف ساخرا :

- سأهبك عما قريب حفيدا من الزنا تقر به عينك.

واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعته الظلمة وبلغ الأب موقف الإخوة وهو يتظاهر بالهدوء تحت الآف الأعين المحدقة فيه، ثم قال بلهجة آمرة.

- ليعد كل شئ إلى أصله .

ورجـع حملـة الكلـوبات إلى مـواقعهم، ودقت الطبول، وعزفت المزامير، ثم غنى المنشدون، ورقص الراقصون، واستأنفت الزفة مسيرها.

وسهر البيت الكبير حتى الصباح فى طرب وشراب وغناء، وعندما دخل أدهم حجرته المطلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة إلى جانب المرأة والنقاب الأبيض مايزال يغطى وجهها . كان مخمورا مسطولا لا تكاد تحمله قدماه، فاقترب منها وهو يبذل جهدا شديدا ليتمالك أعصابه، ورفع النقاب عن وجهها الذى طالعه فى أحسن رواء، وهوى برأسه حتى لثم شفتيها المكتنزتين، ثم قال بلسان مخمور:

- لتهن الهموم جميعا مادمت حسن الختام.

واتجـه نحو الفراش يستقيم خطوة ويترنح خطوة، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمركوب، وكانت أميمة تنظر إلى صورته المنعكسة على المرأة وهى تبتسم فى إشفاق وحنان.

(٥)

وجد أدهم فى أميمة سعادة لم يعرفها من قبل، ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندر به إخوته، وعند خـتام كل صلاة كان يبسط يديه هاتفا: "الحمد لصاحب المنن، على رضى أبى الحمد لله على حب زوجتى ، الحمد له علـى المـنن المـتوالـية التى أحظى بها دون من هم أجدر منى بها، الحمد له على الحديقة الغناء والناى الرفيق، الحمد له". وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية، فهى ترعى زوجها كأنه أمها، وتوادد حماته وتخدمها حتى أسـرتها، وتولى مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها، أما أدهم فكان زوجا مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة، وكمـا شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملاهية البريئة فى الحديقة من قبل، فقد شغل الحب بقية يومه، واستبد به حتى نـسى نفسه، وتوالت أيام هانئة، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون، ولكنها ارتطمت فى النهاية بذاك الهدوء الحكيم كما تنتهى مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة فى النهر الرصين، وعاد التساؤل يحتل مكانه فى قلب أدهم، فشعر بأن الزمن لا يمر فى غمضة عين، وأن النهار يعقبه الليل، وأن المناجاة إذا تواصلت إلى غير نهاية فقدت كل معـنى، وأن الحديقـة ملهاة صادقة لا يحدر به أن يهجرها، وأن شيئا من هذا لايعنى بحال أن قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال فى صميمة، ولكن للحياة أطوارا لا يخبرها المرء إلا يوما بيوم.

وعاد إلى مجلسه عند القناة وأجال بصره فى الأزهار والعصافير ممتنا ومعتذرا ، وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة، فجلست إلى جانبه وهى تقول :

- نظرت من النافذة لأرى ما أخرك، لماذا لم تدعنى معك؟

فقال باسما :

- خفت أن أتعلبك.

- تتعبنى ؟ طالما أحببت هذه الحديقة أتذكر أول لقاء لنا هنا ؟

وأخـذ يدها فى يده، وأسند رأسه إلى جذع النخلة مرسلاً طرفه إلى الغصون، وإلى السماء خلال الغصون وعادت تؤكد له حبها للحديقة، وكلما أمعن فى الصمت أمعنت فى التوكيد، إذ أ ا كانت تركه الصمت بقدر ما تحب الحديقة، وكان حديث حيا ا أطيب حديث، ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الأحداث فى البيت الكبير، خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل، ثم تغير صو ا مائلا نحو العتاب وهى تقول :

- أنت تغيب عنى يا أدهم ؟

فابتسم إليها قائلا :

- كيف وأنت ملء القلب !

- ولكنك لا تصغى إلى ؟

هذا حق ومع أنه لم يرحب بمقدمها فأنه لم يضق به، ولو همت بالرجوع لأمسك ا صادقا، والحق أنه يشعر بأ ا جزء لا يتجزأ منه وقال كالمعتذر :

- إنى أحـب هذه الحديقة، لم يكن فى حياتى الماضية أطيب من جلستها، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضفضة وعاصيرها المزقزقة تعرفنى كما أعرفها، وأود أن تقاسمينى حبها، أرأيت إلى السماء كيف تبدو خلال الغصون؟

فرفعت عينها مقدار لحظة ثم نظرت إليه باسمة وقالت:

- إ ا جميلة حقا ، وجديدرة بأن تكون أطيب ما فى حياتك .

فآنس من قولها العتاب دون إفصاح وبادرها قائلا :

- بل كانت كذلك قبل أن أعرفك .

- والآن ؟

فضغط على يدها بحنو قائلا :

- لا يتم جمالها إلا بك .

فقالت وهى تحد بصرها نحوه :

- من حسن الحظ أ ا لا تؤاخذك على انصرافك عنها إلى .

فضحك أدهم وجذ ا بحوه حتى التصق خدها بشفتيه، ثم سألها :

- أليست هذه الأزهار أجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات إخواتى ؟

فقالت أميمة باهتمام :

- الأزهـار أجمل ولكن زوجات إخوتك لا يكففن عن الحديث عنك، إدارة الوقف، دائما إدارة الوقف، وثقة أبيك فيك، يبدئن ويعدن فى هذا .

وقطب أدهم غائبا عن الحديقة ، وقال بحدة :

- لا شئ ينقصهن !

- الحق إنى أخاف عليك العين.

فهتف أدهم غاضبا :

- لعنة الله على الوقف ، أرهقنى وغير القلوب على وسلبنى راحة البال، فليذهب فى داهية.

فوضعت أصبعها على شفتية وهى تقول :

- لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، إن إدارة الوقف شأن خطير، وقد تجر وراءها نفعا لا يخطر بالبال .

- جرت حتى الآن المتاعب .. وحسبناه مأساة إدريس .

- فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنم عن جة وإنما دارت ا اهتماما جديا تجلى فى نظرة عينيها وقالت .

- انظـر إلى مستقبلنا كما تنظر إلى الغصون والسماء والعصافير، وواظبت أميمة على مشاركته جلسته فى الحديقة، ولم تكن تعرف الصمت إلا فى النادر، لكنه اعتادها كما اعتاد الأصغاء بنصف انتباه أو دون ذلكن وعند الحاجة يتناول الـناى لاينفخ فيه ما شاء له الطرب، واستطاع أن يقول فى رضى تام أن كل شئ طيب حتى شقاوة إدريس باتت شيئا مألوفا لكن المرض اشتد على أمه، وعانت آلاما لم تعرفها من قبل تقطع لها قلبه، وكانت تدعوه إلى جانبها كثيرا فتسبغ علـيه اكـرام الـدعاء، ومرة قالت له بتوسل حار: "ادع ربك دائما أن يقيك الشر ويهديك سواء السبيل، ولم تدعه يـذهب، وظلت تراوح بني الأنين وبين مخاطبته وتذكيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه وبكاها أدهم ، وبكتها أميمة، وجاء الجبلاوى فنظر فى وجهها مليا ثم سجاها باحترام وقد تجلت فى عينيه الحادتين نظرة كئيبة مليئة بالشجن.

ومـا كاد أدهم يعود رويدا إلى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارئ على أميمة لم يعرف له علة، بدأ بانقطاعها عن مجلسه فى الحديقة فلم يسر بذلك كما كان يتوهم أحيانا، وسألها عن سر انقطاعها فاتلت بأعذار شتى كالعمل أو التعب، ولاحـظ أ ـا لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود ، فإذا أقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقة، كأنما تجامله، وكأ ما مجاملـته عـناء، وتساءل عما هناك! لقد مر بشئ شبيه ذا ، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه، وكان بوسعه أن يقسو علـيها، وود أحيانا لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحو ا ومغالا ا فى التأدب معه أحيانا تبدو حزينة، وأحيانا تبدو حائرة ومرت باغت فى عينيها نظرة نافرة حتى ركبه الغضب والجزع معا وقال لنفسه : " فلا صبر عليها قليلا، إما ينصلح حالها أو فلتذهب فى ألف داهية".

وجلس إلى أبيه فى مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامى.

وتفحصه الأب دون أن يعنى بمتابعته وسأله:

- مالك ؟

فرفع أدهم رأسه نحوه فى دهشة وقال :

- لا شئ يا أبى .

فضيق الرجل عينيه وتمتم :

- خبرنى عن أميمة .

فانخذلت عيناه تحت نظرة أبيه النافذة وقال :

- بخير ، كل شئ طيب .

فقال الجبلاوى بضجر :

- صارحنى بما عندك .

فصمت أدهم مليا ، وهو يؤمن بان أباه قادر على معرفة كل شئ .

ثم قال معترفًا :

- تغيرت كثيرا ، وتبدو كالنافرة .

فتجلت فى عينى الأب نظرة غريبة وقال :

- هل وقع بينكما خلاف ؟

- أبدا .

فقال الجبلاوى فى ارتياح وهى يبتسم :

- يا جاهل ، ترفق ا ، لا تقترب منها حتى تدعوك، سوف تكون أبا عما قريب .

(٦)

جالـس أدهـم فى إدارة الوقف يستقبل مستأجرى الأحكار الجدد، وأحدا بعد أخر، وقد وقفوا طابورا، أوله أمامه وأخره فى اية المنظرة الكبيرة، ولما جاء أخر المستأجرين سأله أدهم دون أن يرفع رأسه عن دفتره فى عجلة وضجر :

- اسمك يا معلم ؟

- إدريس الجبلاوى

فرفع أدهم رأسه فى فزع فرأى أخاه واقفا أمامه، ثم وقف متوثبا للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر، لكن إدريس بدا فى مظهر جديد لا عهد لأحد به، بدا رث الهيئة هادئا، متواضعا، حزين الطرف مأمون الجانب ، كالثوب المنشى بعد نقعـة فى الماء، ومع أن هذا المنظر استل من نفس أدهم كل حنق قديم إلا أنه لم يطمئن إلى السلامة كل الاطمئنان، فقال فى تحذير مشوب بالرجاء .

- إدريس !

فأحنى إدريس رأسه قائلا فى رقة عجيبة .

- لا تخف لست إلا ضيفك فى هذا البيت إذا وسعنى كرم أخلاقك.

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن إدريس حقا ! هل أدبته الآلام؟ الحق أن خشوعه محزن كفجوره، وألا تعد استضافته لـه تحـديا للأب؟ لكنه جاء دون دعوة منه، ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده ، فجلس معا وهما يتبادلان النظر فى غرابة حتى قال إدريس:

- أندسست فى جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك .

فتسأل أدهم فى قلق :

- ألم يرك أحد ؟

- لم يرنى أحد من البيت، اطمئن إلى هذا ، لم أجىء لأكدر صفوك ولكنى الجأ إلى لطف اخلاقك .

فغض أدهم عينيه متأثرا وقد تصاعد الدم إلى وجهه، فقال إدريس :

- لعلـك تعجـب لما غيرنى، لعلك تتساءل أين ذهب تكبره وصلفه، فأعلم أننى فاسيت آلاما لا يقدر عليها أحد، ورغم هذا كله فأننى لا أقف موقفى هذا من أحد سوالك إذ أن مثلى لاينسى كبرياءه إلا حيال الخلق اللطيف .

فغمغم أدهم قائلا :

- خفف الله عنك وعنا، فكم نغص مصيرك حياتى وكدرها.

- كـان ينبغى أن أعرف هذا من أول الأمر، ولكن الغضب جننى وفتكت الخمر بكرامتى، ثم اجهزت حياة التشرد والبلطجة على الرمق الأخير من انسانيتى، أعهدت مثل ذلك السلوك فى أخيك الأول ؟

- أبدا ، كنت خير أخ وأنبل إنسان !

فقال إدريس بصوت المتوجع :

- حـسرة علـى تلـك الأيام، لست اليوم إلا شقيا، اخبط فى الخلاء جارا ورائى ارمأة حبلى، اشبع فى كل مكان باللعنات، واترى رزقى بالمنكر والعدوان.

- إنك تمزق قلبى يا أخى .

- معـذرة يـا أدهـم ، لكن هذه هى طويتك التى خبر ا منذ قديم، ألم أحملك صغيرا على يدى، ألم أشهد صباح ويفاعتك وألمس فيها نبلك وسجاياك الحميدة؟ لعنة الله الغضب حيثما احترق.

- لعنة أبدية يا أخى .

تنهد إدريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه :

- شد ما اسأت إليك، أن ما حاق بى من شر وما سيحيق لهو دون ما استحق من جزاء .

- خفف الله عنك ، اتدرى أننى لم ايأس أبدا من عودتك؟

حتى فى أبان غضب أبينا جازفت بمخاطبته فى شأنك .

فابتسم إدريس عن أسنان علاها الإصفرار والقذارة وقال :

- هذا ما حدثتنى به نفسه ، قلت إن يكن ثمة رجاء فى مراجعة أبى فلن يتأتى عن سبيل سواك.

فلمعت عينا أدهم وهو يقول :

- إنى ألمس الهداية فى روحك الكريمة، إلا ترى أنه قدر أن الآوان لكى نخاطب والدنا فى الأمر ؟

فهز إدريس رأسه الأشعث فى يأس وقال :

- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة، وأنا أكبرك بعشر سنوان لا بسنة واحدة، فأعلم أن أبانا يغفر كل شئ إلا أن يهينه أحد، لن يعفو عنى أبوك بعد ما كان، ولا أمل لى فى العودة إلى البيت الكبير .

لا شك فيما قاله إدريس، وهذا مازاده حرجا وضيقا وتمتم فى كآبة :

- ماذا فى وسعى أن أفعل من أجلك ؟

فابتسم إدريس مرة أخرى قائلا :

- لا تفكـر فى مساعدات مالية، فإنى واثق من أمانتك كمدير للوقف وأعلم أنك إذا مددت لى يد المعونة فسيكون مـن حر مالك، وه ما لا أقبله، أنك اليوم زوج وغدا أب، وأنا لم اجئك مدفوعا بفقرى، ولكنى جئت لأعلن لك ندمى عما فرط منى فى حقك، ولاسترد مودتك، ثم أن لى رجاء .

فتطلع إليه أدهم باهتمام وتساءل:

- قال يا أخى ما رجاؤك؟

فأدنى إدريس رأسه من أخيه كأنما يخشى أن تسمعه الجدران وقال :

- أريد أن أطمئن على مستقبلى بعد أخ خسرت حاضرى، سأكون أبا مثلك، فما مصير ذريتى؟

- ستجدنى رهن اشارتك فى كل ما استطيع.

فربت إدريس كتف أدهم بامتنان وقال :

- أريد أن أعرف هل حرمنى أبى من حقى فى الميراث؟

- كيف لى بمعرفة هذا، ولكن أن سألتنى عن رأيى..

فقاطعه إدريس قلقا :

- إنى لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأى أبيك .

إنه كما تعلم لا يصارح أحدا بما يدور فى رأسه .

- ولكنه دون شك فج سجله فى حجة الوقف .

فهز أدهم رأسه دون أن ينبس فعاد إدريس يقول :

- كل شئ فى الحجة .

- لا علـم لى ـا، وأنت تعلم أن احدا فى بيتنا لا يدرى عنها شيئا. وعلمى فى الإدارة يسير تحت إشراف أبى الكامل .

فحدجه إدريس بنظرة حزينة وقال :

- الحجـة فى مجلد ضخم، وقد لمحته مرة فى صباى وسالت أبى عما فيه - وكنت وقتذاك قرة عينه- فقال لى إنه يـضم كل شئ عنا، ولم نعد إلى الحديث عنه، ولم يسمح لى بذلك حين بدأ لى أن اسأل عن بعض ما جاء فيه، ولا أشك الآن فى أن مصيرى قد تقرر فيه.

فقال أدهم وهو يشعر بأنه ينحصر فى ركن ضيق:

- الله أعلم .

- إنـه فى الخلـوة المتصلة بمخدع أبيك، ولا شك أنك رأيته با ا الصغير فى اية الجدار الأيسر، وهو باب مغلق دائمـا، لكن مفتاحه مودع فى صندوق فضى صغير فى درج الخوان القريب من الفراش، أما الد الضخم فعلى ترابيزة فى الخلوة الضيقة .

فرفع أدهم حاجبية الخفيفتين فى انزعاج وتمتم :

- ماذا تريد ؟

فقال إدريس متنهدا

- إن كان ثمة راحة بال باقية لى فى هذه الدنيا فهى رهن بمعرفتى ما سجل فى الحجة عنى.

- فقال أدهم فى ارتياع :

- أهون على أن أسأله عما فى الشروط العضرة صراحة!

- لـن يجـيب، وسيغضب وربما اسء بك الظن، أو خمن الدافع الحقيقى وراء سؤالك فثار سخطة، وكم أكره أن تخسر ثقة أبيك جزاء أحسانك إلى، وهو لاشك لايريد أن يذيع شروطه العشرة، ولو أراد ذلك لعرفناه جميعا، لفلا سبيل مأمونا إلى الحجة إلا السبيل الذى وصفه لك. وهو ميسور جدا عند الفجر حين يتجول أبوك فى الحديقة.

فامتقع وجه أدهم وهو يقول :

- ما أفظع ما تدعونى إليه يا أخى .

فدارى إدريس خيبته بابتسامة شاحبة وقال :

- ليس جريمة أن يطلع ابن على ما يخصه فى حجة أبيه .

- لكنك تطلب إلى سرقة سر يحرص أبونا على صونه.

فتنهد إدريس بصوت مسموع وقال :

- قلـت لنفـسى عـندما قررت الجوء إليك: " ما أصعب أن أقنع أدهم بعمل يعتبره مخالفا لإرادة الأب، ولكن داعـبنى أمل قوى فقلت لعله يقدم إذا لمس مدى حاجتى إلى معونته، وليس فى الأمر جريمة وسيمر بسلام، وستجد أنك انتشلت روحا من الجحيم دون أدنى خسارة.

- ليحفظنا المولى من الأخطار ..

أمين لكنى أتوسل إليك أن تنقذنى من العذاب.

ض أدهم فى جزع واضطراب ، فنهض إدريس فى أثره وابتسم ابتسامة دلت على تسليمة باليأس وقال :

- أزعجـتك حقا يا أدهم ! من أمارات تعاستى أننى لا ألقى شخصا حتى تدرجه المتاعب على وجه أو أخر، بات إدريس لعنة ساخرة.

- كم يعذبنى عجزى عن مساعدتك أنه عذاب ما بعده عذاب.

فدنا منه حتى وضع يده على منكبه فى رقة، ثم لثم جبينه فى عطف وقال :

- لا يسأل عن تعاستى إلا نفسى، لمذا احملك فوق ما تطيق؟

دعنى أترك بسلام وليفعل الله ما يشاء .

قال إدريس ذلك ثم ذهب .

(٧)

دبت الحيوية فى وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير، فسألت أدهم باهتمام :

- ألم يحدث أبوك عن الحجة من قبل ؟

كان أدهم متربعا على الكنبة، ينظر من النافذة إلى الخلاء الغارق فى الظلمة فأجا ا :

- لم يحدث احدا عنها قط .

- لكن أنت .

- لست إلا أحد أبنائه الكثيرين.

فابتسمت ابتسامة خفيفة وقال :

- لكنه اختارك أنت لتدير الوقف .

فالتفت نحوها قائلا بحدة :

- قلت إنه لم يحدث أحدا عنها قط .

فابتسمت مرة أخرى كأنما لتلطف حدته، ثم قالت بمكر :

- لا تشغل بالك، إدريس لايستحق ذلك، إن إساءاته لك لا تنسى أبدا.

فحول أدهم رأسه نحو النافذة وقال بحزن :

- إدريس الذى جاءنى اليوم غير إدريس الذى اساء إلى، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتى.

فقالت بارتياح ظاهفر.

- هذا ما أدركته من حديثك، وهو سر اهتمامى بالأمر، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك.

كان ينظر إلى الظلام الكثيف، لكن رأسه المشغول لم يستجب له فقال:

- لا فائدة ترجى من الاهتمام .
- لكن أخاك النادم يسألك الرحمة .
- العين بصيرة واليد قصيرة.
- يجب أن تحسن علاقتك به، وبأخوته، وإلا وجدت نفسك يوما وحيدا أمامهم.
- أنت تمين بنفسك لا بإدريس .

فهزت رأسها كأنما تزيح عنه نقاب المكر وقالت :

- من حقى أن أهتم بنفسى، ومعنى هذا أن اهتم بك وبما فى بطنى، ماذا تريد المراة ؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته، حتى المقطم العظيم قد أبتلعه وأراح نفسه بالصمت وإذا ا تسأله :
- ألا تذكر أنك دخلت الخلوة أبدا ؟

فأجاب خارجا من صمته القصر :

- أبدا ، أحببت فى صباى أن أدخلها فمنعنى ابى، ولم تكن أمى تسمح لى بالاقتراب منها.
- لا شك أنك كنت تتمنى دخولها ؟

مـا حـداثها فى الأمر إلا وهو ينتظر أن تدفعه عنه لا أن تجيز به إليه كان بحاجة إلى من يؤكد له صواب موقفه من أخيه، كان بحاجة ماسة إلى ذلك، ولكنه كمن ينادى فى الظام خفيرا فيخرج إليه قطاع طريق.

وعادت أميمة تسأله :

- والخوان الذى به الصندوق الفضى هل تعرفه ؟
- كل من دخل الحجرة يعرفه، لماذا تسالين عنه؟
- تزحزحت من مجلسها على الكنبة مقتربه منه وسألته باغراء:
- بربك ألا تود أن تطلع على الحجة ؟

فأجاب بحدة :

- كلا ، لماذا أود ذلك ؟
- منذا يقاوم الرغبة فى الاطلاع على المستقبل .
- تعنين مستقبلك أنت ؟
- مستقبلى ومستقبلك ، ومستقبل إدريس الذى حزنت عليه رغم ما سبق منه ضدك.

المرأة تعرب عما فى نفسه، وهذا مايثير حنقه ومد رأسه نحو النافذة كأنما يهرب منها وهو يقول :

- لا أود ما لا يود أبى .

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة:

- لماذا يخفى هذا الأمر ؟

- ذلك شأنه ، ما أكثر أسئلتك الليلة!

فقالت وكانما تخاطب نفسها :

- المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احسانا كبيرا إلى إدريس التعيس، لن يكلفنا هذا كله إلا قراءة ورقة دون أن يـدرى أحد، واتحدى أى صيق أو عدو أن يثبت علينا سوء نية فى عملنا هذا أو انه يمس من قريب أو من بعيد والدك المحبوب .

وكان أدهم يراقب نجما فاق الأنجم بضيائه اللامع فقال متجاهلا قولها :

- ما أجمل السماء ! لولا رطوبة الليل لجلست فى الحديقة أراقبها من خلال الغصون.

- لا شك أنه ميز البعض فى شروطه.

فهتف أدهم :

- ما أزهدنى فى امتياز لايجر وراءه إلا المتاعب.

فقالت متنهدة:

- لو كنت أعرف القراءة لذهبت بنفسى إلى الصندوق الفضى .

تمـنى لو كان ذلك كذلك، وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه، بل شعر بأنه قد وقع فى المحظور فعلا وأنه يفكر فيه كحدث مضى، وتحول نحوها مقطبا فبدأ وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل من النافذة متجها ، ضعيفا رغم تجهمه وقال:

- لعنت حين أفضيت إليك بالخبر !

- لا أريد ب شرا، ومبحتى لوالدك مثل محبتك له .

- دعيك من هذا الحديث المتعب، فى هذه الساعة تستحب الراحة.

- يبدو أن قلبى لن يرتاح قبل الاقدام على هذا العمل السهل ..

فنفخ قائلا :

- اللهم أرجع إليها عقلها !

فرمقته بنظرة المتحفزة ثم سالته :

- ألم تخالف أباك باستقباك إدريس فى المنظرة ؟

فاتسعت عيناه دهشة وقال :

- وجدته أمامى فلم يسعنى إلا استقباله .

- هل أخبرت والدك بنبأ زيارته ؟

- ما أثقلك الليلة يا أميمة .

فقالت بصوت الظافر :

- إذا جاز لك أن تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك ويفيد اخاك ولا يضر أحدا؟

بوسعه أن يقطع الحديث لو شاء، ولكن المنحدر كان شديد الانحدار، والحق أنه لم يتركها تسترسل فى حديثها إلا لأن جزءًا من نفسه كان بحاجة إلى تأييدها، وتساءل فيما يشبه الغضب:

- ماذا تعنين ؟

- أعنى أن تسهر حتى الفجر، أو حتى يخلو المكان لنا .

فقال بامتعاض:

- ظننت الحمل قد أفقدك عاطفتك وحدها، ولكن ها هو يفقدك عقلك أيضا .

- أنت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح فى بطنى، ولكنك خائف، والخوف لا يليق بك .

فاكفهر وجهه أكفهرارا منقطع الأسباب بالتراخى السارى فى داخله وقال :

- سنذكر هذه الليلة أول زعل فرق بيننا.

فقالت برقة عجيبة :

- أدهم ، دعنا نفكر جادين فى الأمر .

- لن نجنى خيرا .

- هذا قولك ولكنك سترى .

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : إذا احترفت فلن تجدى دموعى فى أخمادها، وحول رأسه إلى النافذة فخيل إليه أن سكان ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت زتمتم بصوت ضعيف :

- لم يحب أح أباه كما أحبه .

- لم أبعدك عما يسيئه .

- أميمة ، ما أحوجك إلى النوم .

- أنت الذى طيرت النوم من عينى .

- أملت أن أسمع عندك صوت العقل .

- ما اسمعتك غيره .

وسائل نفسه بصوت منخفض كالهمس :

- ترى هل أندفع نحو الخراب ؟

فربتت يده الملقاة على مسند الكنبة وقالت بعتاب:

- مصيرنا واحد يا ناكر الحب !

فقال فى استسلام دل على أنه اتخذ قراره :

فقالت بانطلاق :

- ستقرأ مصيرك فى الحجة ..

ومد بصره نحو النجوم الساهرة. وقطع السحاب المستضيئة بنورها الهادئ، وخيل إليه أ ا مطلعة على نجواه فغمغم : " يا لطف السماء، ثم سمع أميمة وهى تقول فى نبرات مداعبة:

- أنت علمتنى حب الحديقة، دعنى أرد إليك الجميل .

(٨)

وعـند الفجر غادر الأب حجرته قاصدا الحديقة ، كان أدهم بأقصى الردهة يترقب أميمة خلفه ممسكة بكتفه فى الظـلام، تابعا وقع الأقدام الثقيل المتزن ولكنهما لم يتبينا اتجاهها فى الظلام، وكان من عادة الجبلاوى أن يسير فى هذه الساعة دون حاجة إلى ضوء أو رفيق، وسكت الصوت فالتفت أدهم نحو زوجه هامسا:

- ألا يحسن بنا أن نعود ؟

فدفعته وهى مس فى أذنه :

- على اللعنة أن كنت أضمر سوءًا لإنسان .

فتقدم بخطوات حذرة، فى اضطراب أليم، ويده قابضة على شمعة صغيرة فى جيبه، وجعل يتحسس الجدار حتى مست يده مصراع الباب .

وهمست أميمة:

- سابقى هنا لأرقب المكان، اذهب مصحوبا بالعناية .

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت، ومضى أدهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتقلى من داخلها رائحة مـسكية شديدة النفاذ، ورد الباب وراءه ووقف يحملق فى الظلام حتى تبين له خصاص النوافذ المطلة على الخلاء، وهى تنـضح بنور الفجر، شعر أدهم بأن الجريمة - أن كان ثمة جريمة - قد وقعت بدخوله الحجرة، وأن عليه أن يتم عمله، سـار مع الجدار الأيسر، مرتطما أحيانا بالمقاعد، مارا فى طريقة بباب الخلوة، حتى بلغ ايته، ثم مال مع الجدار الأوسط ومـا لبث أن عثر على الخوان، جذب الدرج، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق، ثم شعر بحاجة إلى الراحة ليأخذ نفسه. ورجع إلى باب الخلوة ففتش عن ثقبه، ثم وضع فيه المفتاح وأجاره، وفتح الباب، وإذا به يتسلل إلى الخلوة التى لم يدخلـها أحد قبله إلا الأب، رد الباب، فأخرج الشمعة، ثم أشعلها، فرألا مربعا ذا سقف عال لا منفذ فيه إلا الباب، مفـروش الأرض بسجادة صغيرة، وعند ضلعه الأيمن ترابيرزة أنيقة عليها اـلد الكبير الذى ثبت فى الجدار بعلاقة من صـلب، ازدارد أدهم ريقه الجاف بشئ من الألم كأنه وعكة أصابت اللوزتين، وعض على أسنانه، كأنما ليعصر الخوف الـسارى فى أوصـاله المرعش للشمعة فى يده واقترب من التربيزة وهو يحملق فى غلاف اـلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب، ثم مد يده ففتحه، وجد مشقة فى تركيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه وبدأ يقرأ بالخط الفارسى "باسم الله".

لكنه سمع الباب وهو يفتح بغتة، انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعى كأن الباب شده إليه وهو ينفتح رأى الجبلاوى على ضوء شمعته يسد الباب بجسمه الكبير ملقيا على نظرة باردة قاسية، حملق أدهم فى عينى أبيه فى صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير، وأمره الجبلاوى قائلا :

- اخرج .

ايقظه الرعب من تجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب، فغادر أدهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق فى يده ، ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة، والدمع ينحدر تباعا من مقلتيها، وأشار له الأب أن يقف إلى جانب زوجته ففعل، ثم خاطبه بصرامة قائلا :

- عليك أن تجيب على أسئلتى بالصدق .

فنطقت أساريره بالامتثال ، وسأله الرجل :

- من الذى أخبرك بالكتاب ؟

فقال أدهم دون تردد كوعاء تحطم فسال ما فيه :

- إدريس .
- متى ؟
- صباح الأمس .
- كيف تم اللقاء بينكما ؟
- أندس بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفرد بى .
- لماذا لم تطرده ؟
- عز على طرده يا أبى .

فقال الجبلاوى بحدة :

- لا تخاطبنى بالأبوة .

فاستجمع أدهم قواه قائلا :

- إنك أبى رغم غضبك ورغم حماقتى .
- أهو الذى أغراك بفعلتك ؟

وأجابت أميمة دون أن يوجهه إليها السؤال :

- نعم يا سيدى .
- اخرسى يا حشرة (ثم موجها الخطاب إلى أدهم) .. أجبّ
- كان يائسا حزينا نادما وود لو يطمئن على مستقبل ذريته.
- وفعلت هذا من أجله .

- كلا .. اعتذرت له عن عجزى .
- وماذا غيرك ؟
فتنهد أدهم يائسا وتمتم .
- الشيطان !
فسأله ساخرا :
- هل أخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟
هنا انتحبت أميمة فنهرها الجبلاوى أن تخرس، وحث أدهم على الإجابة بإشارة من إصبعه ، فقال:
- نعم .
- وماذا قالت لك ؟
لاذ أدهم بالصمت كى يزدرد ريقه فصاح به :
- أجب يا وضيع .
- وجدت ا رغبة فى الاطلاع على الوصية وظننت أن ذلك ين يضر أحدا .
فحدجه باحتقار شديد وقال :
- وهكذا انصعت إلى خيانة من فضلك على من هم خير منك .
فقال أدهم بصوت كالأنين :
- لن يسعفنى دفاع عن ذنبى ، لكن مغفرتك أكبر من الذنب والدفاع .
- تتأمر على مع إدريس الذى طردته إكراما لك ؟
- لم اتامر مع إدريس، لقد أخطأت ، ولا نجاة لى إلا بمغرفتك.
وهتفت أميمة بتوسل :
- سيدى ...
فاطعها قائلا :
- إخرسى يا حشرة .
وجعل يردد عينيه بينهما عابسا ، ثم قال بصوت رهيب :
- أخرجا من البيت .
وهتف أدهم :
- أبى .
فقال الرجل بصوت غليظ :
- غادرا البيت قبل أن تلقيا خارجا .

وفتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج أدهم وأميمة مطرودين. خرج أدهم يحمل بقجة ملابس، وتبعته أميمة حاملة بقجة ثانية وأطعمة خفيفة.

خرجا ذاليلين حزينين باكيين بلا أملن وعندما سمعا صوت الباب وهو يغلق خلفهما ارتفع صوتهما بالنحيب، وقالت أميمة وهى تنشج :

- الموت ما أستحق من جزاء!

فقال أدهم بصوت متهدج :

- لأول مرة تصدقين، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك .

وما كادا يبتعدان قليلا عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة، فنظرا نحو مصدرها، فرأيا إدريس أمام كوخه الذى بناه من الصفائح والأخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهى تغزل صامتة، كان إدريس يضحك فى سخرية وشماته حتى ذهل أدهم وأميمة فوقفا يحملقان فيه ، وراح إدريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فآوت إلى الكوخ ، تابع أدهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب ، أدرك فى لحظة المكر الذى مكره فتكشف له عن حقيقته الخبيثة المرمة، وأدرك أيضا مدى حمقه وغبائه الى يرقص له المرم شماتة وفرحا، هذا هو إدريس الذى استحال شرا مجسدا وغلى دمه حتى فار فأغرق مخه وقبض على حفنة من تراب ورماه ا وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب.

- يا قذر ، يالعين، أن العقرب بالقياس إليك حشرة مستأنسه.

فأجاب إدريس بمزيد من حركاته الراقصة ، هز رقبته يمنة ويسرة ، ولعب حاجبيه ومازال يفرقع بأصابعه وتضاعف غضب أدهم فصاح:

- الفساد والدناءة والوضاعة هذه هى صفات المخادعين الكاذبين ، فراح إدريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التى هز ا رقبتة ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة، فصاح أدهم دون التفات إلى أميمة التى حاولت أن تدفعه إلى المسير :

- حتى الدعارة تجر ا يا أقدر من خلق !

فمضى إدريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه فى بط ودلال فأعمى الغضب أدهم برمى بالبقجة أرضا ودفع أميمة التى همت بالتعلق به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته لم يبد على إدريس أنه تأثر بالمنقض ولا بقبضته، وواصل الرقص وهو يتأنق فى تأودة، وجن جنون أدهم فا ال على إدريس ضربا ولكن إدريس ازداد عبثا وراح يغنى بصوت كريه:

= حطة ا بطة يا دقن القطة .

وتوقف بغتة وهو يزمجر، ثم دفع أدهم فى صدره دفعة قوية تقهقر على أثرها يترنح ثم اختل توازنه فسقط على ظهره ، وهرعت إليه أميمية صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول :

- مالك أنت وهذا الوحش، فلنبتعد عنه !

وتـناولت الـبقجة صامتا، وحملت زوجته بقجتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر، وكان الإعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول: "لنسترح قليلا"، فجلست المرأة قبالته وقد رجعت تبكى، وإذا بصوت إدريس يترامى إليهما قويا كالرعد وصاحبه يقف ناظرا إلى البيت الكبيرة نظرة التحدى ويصيح :

- طـردتنى إكـراما لأحقر من أنجبت، أرأيت كيف كان سلوكه نحوك، ها أنت ترميه بنفسك إلى التراب، عقاب بعقاب والبادى أظلم، كى تعلم أن إدريس لا يقهر، فلتبق وحدك مع ابنائك العقماء الجبناء، لن يكون لك حفيد إلا من يسعى فى التراب ويتقلب فى القاذورات، غدا يسرحون بالبطاطة واللب، غدا يتعرضون لصفعات الفتوات فى العطوف وكفـر الزغارى، غدا يمتزج دمك بأحقر الدماء، وتقبع أنت وحيدا فى حجرتك تبدل وتغير فى كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل وتعانى وحدة الشيخوخة فى الظلام، حتى إذا جاء الأجل فلن تجد عينا تبكيك.

ثم التفت صوت أدهم وواصل صياحه الجنونى :

- وأنـت أيهـا الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك! لا قوة فيك تؤيدك ولا قوى لديك تعتمد عليه، وماذا تفيدك مبادئ القراءة والحساب فى هذا الخلاء ؟ ها .. ها .. ها ..

ولم تزل أميمة تبكى حتى ضاق ا أدهم فقال فى فتور :

- كفى عن البكاء .

فقالت وهى تجفف عينيها :

- سأبكى كثيرا ، أن ا الآثمة يا أدهم .

- لست دونك اثما ، لو لم تلقى منى ضعيا نذلا ما وقع الذى وقع .

- الذنب ذنبى وحدى .

فهتفت بغيظ :

- إنك تحملين على نفسك لتتقى حملتى عليك ..

فباخت حميتها فى ا ام نفسها وأحنت رأسها مليا ثم عادت تقول بصوت ضعيف :

- لم أكن أتصور أن تبلغ قسوته هذا الحد .

- إنى أعرفه ولا عذر لى .

فترددت قليلا ثم قالت :

- كيف أعيش هنا وأنا حبلى ؟

- فى هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير، ليت للدموع جدوى، ولكن ليس أمامنا إلا أن نقيم كوخا لنا .

- أين ؟

فنظر فيما حوله، ووقف نظره قليلا صوب كوخ إدريس، ثم قال بقلق :

- لا يجـوز أن نبتعد كثيرا عن البيت الكبير ولو اضطررنا إلى البقاء غير بعيد من كوخ إدريس، وإلا هلكنا وحدنا فى أطراف هذا الخلاء.

ففكرت أميمة قليلا ثم قالت بوجه مال إلى الاقتناع برأيه :

- نعم ، ولكن نبقى على مرمى بصره ، لعله يرق لحالنا .

فتأوه أدهم قائلا :

- الحسرة تقتلنى ، ولولاك لتوهمت ما بى كابوسا، هل يجفونى قلبه إلى الأبد؟ لن أتطاول عليه كإدريس ، هيهات، لست كإدريس فى شئ، فهل ألقى نفس المعاملة؟

فقالت أميمة فى حنق :

- لم تعرف هذه الأحياء أبا مثل أبيك .

فتساءل بعينين حادتين :

- متى يتوب لسانك ؟

فانفعلت قائلة :

- والله مـا ارتكبت جريمة ولا إثما، خبر من تشاء بما فعلت وبما نلت جزاء ما فعلت وأراهنك على أنه سيضرب كفا بكف، والله ما عرفت الأبوة أبا كأبيك .

- ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله، هذا الجبل ن وهذه الصحراء، وهذه السماء تعرفه، ومثله يجبن عند التحدى.

- ذا الجبروت لن يبقى فى البيت أحد من أبنائه .

- نحن أول الخارجين فنحن شر من فيه .

فقالت بامتعاض:

- لست كذلك، لسنا كذلك .

- الحكم الصحيح لن يكون إلا عند الامتحان .

لاذ كلاهـا بالصمت لم يكن بالخلاء حتى يرى، إلا بعض المارة العابرين عن بعد عند سفح الجبل، وكانت الشمس ترسـل أشعة حامية من سماء صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصا أو قطع الزجاج المتناثرة ، ولم يكن من قائم إلا الجـبل فى الأفق، وصخرة كبيرة فى الشرق كأ ا راس جسم مطمور فى الرمال، وكوخ إدريس عند الطرق الشرقى للبـيت الكبير ينغرس فى الأرض متحديثا يئته الزرية، كان الجول كله ينذر بالشقاء والتعب والخوف وتنهدت أميمة بصوت مسموع وقالت :

- سنتعب كثيرا حتى تتيسر لنا الحياة .

فرنا أدهم إلى البيت الكبير وقال :

- وسنتعب أكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة أخرى .

شـرع أدهـم وأميمة فى إقامة كوخ لهما عند الطرف الغربى للبيت الكبير، كانا يجيئان بالأحجار من المقطم، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل، ويلتقطان الأخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر، وتبين لهما أن بناء الكـوخ سيـستغرق وقتا اطول مما قدرا. وصادف ذلك نفاد الزاد الذى حملته أميمة من البيت من جبن وبيض وعسل أسـود، فقر أدهم أن يبدأ بالسعى فى سبيل رزقه ، ورأى أن يبيع بع ثيابه الثمينة ليشترى بثمنها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب المواسم، وعندما أخذ فى جمع ثيابه أجهشت أميمة فى البكاء من شدة التأثر، ولكنه لم يستجب لعواطفها، فقال وهو بين السخط والسخرية:

- لم تعد هذه الثياب تناسبنى، أليس من المضحك أن أسرح ببطاطة وأنا متلفع بعباءة مزركشة من وبر الجمل؟

ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية، الجمالية التى لم تنس بعد زفته وانقبض قلبه واحتبس صوته فكف عن النداء وكادت تغرورق عيناه ، واتجه نحو الأحياء البعيدة متهربا وكان يواظب على المشى والنداء من الصباح إلى المساء حـتى كلـت يداه وانجرد نعلاه وسرت الأوجاع فى قدميه ومفاصله، وكم كان يشق عليه مساومات النسوان، أو أن يـضطره الأعـياء إلى افتـراش الأرض لصق جدار، أن أن يقف فى ركن ليفك حصره، بدت الحياة غير حقيقية، وأيام الحديقـة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم كالأساطير، وجعل يقول لنفسه: "لاشئ حقيقى فى هذه الدنيا، هى البيت الكبير، هى الكوخ الذى لم يتم، هى الحديقة هى عربة اليد، هى المس واليوم والغد، لعلى أحسنت صنعا بالإقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضى كما فقد الحاضر والمستقبل، وهل من عجب أن أخسر الذاكرة كما خسرت أبى وكما خسرت نفسى؟ فإذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة يعود، ولكن ليواصل العمل فى بناء الكوخ، ومرة جلس فى حـارة الوظاويط عن الظهر ليستريح فنعس، واستيقظ على حركة فرأى غلمان يسرقون عربته فنهض مهددا . وراه غـلام فنـبه أقـرانه بصفير ودفع العربة ليشغله ا عن مطارد م فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد، وغضب أدهم غضبا شديديا حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم، ثم انكب على الأرض يجمـع الخيار الذى لوث بالطين وتضاعف غضبه دون أن يجد له متنفسا فراح يقول بتأثر وانفعال : "لماذا كان غضبك كالـنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كانت كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نـداس بالأقدام كالحشرات؟ والعفو واللين والتسامح ما شأ ا فى بيتك الكبير أيها الجبار! وقبض على يدى العربة وهم يدفعها بعيدا عن الحارة اللعينة، وإذا بصوت يقول متهكما :

- بكم الخيار يا عم ؟

رأى إدريـس واقفا يبتسم ابتسامة ساخرة، رافلاً فى جلباب مقلم بألوان زاهية، وعلى رأسه لاسة بيضاء، رآه باسما ساخرا لا ثائرا ولا هائجا فضاقت لمنظره الدنيا فى عينيه رغم ذلك، ودفع العربة ليذهب ، ولكن إدريس اعترض سبيله وهو يقول فى دهشة:

- ألا يستحق زبون مثلى حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس أدهم فى عصبية وهو يقول :

- دعنى وشانى .

فأمعن إدريس فى السخرية متسائلا :

- ألم تجد خيرا من هذه اللهجة تخاطب ا أخاك الأكبر ؟

فقال أدهم بلهجة المتصبر :

- يا إدريس أما كفاك ما فعلت بى ؟ لا أريد أن تعرفنى أو أن أعرفك .

- كيف يتأتى هذا ونحن فى حكم الجيران ؟

- ما أردت جوارك ولكنى قصدت أن أبقى قريبا من البيت الذى.. فقاطعه هازئًا :

- الذى طردت منه !

فسكت أدهم وقد تجلى الضيق فى شحوب وجهه، فاستطرد الآخر قائلا :

- النفس تتعلق بالمكان الذى تطرد منه ، أليس كذلك ؟

فلم يخرج أدهم عن صمته ، فقال الآخر :

- إنـك تطمـع فى العـودة إلى البيت ما ماكر، إنك ضعيف حقا ولكن ملىء بالمكر، ألا فاعلم بأنى لن أسمح لك بالعودة وحدك ولو انطبقت السماء على الأرض .

فتساءل أدهم ومنخراه ينحر كان من الحنق:

- ألم يكفك ما فعلت بى ؟

- ألم يكفك أنت ما فعلت بى ؟ من أجلك طردت وكنت كوكب البيت المنير .

- بل طردت بسبب نفسك المتعجرفة .

فقهقة إدريس قائلا :

- وطردت أنت بسبب نفسك الضعيفة، فلا مكان فى البيت الكبير للقوة ولا للضعف، فانظر إلى استبداد أبيك ، أنه لا يسمح باجتماع القوة والضعف فى نفس ألا نفسه هو، أنه القوى لحد الفتك بفلذات كبده، الضعيف لحد التزوج من أم كأمك.

فقطب أدهم غاضبا وقال بتهدج :

- دعنى اذهب ، وتحرض إذا شئت بقوى مثلك .

- أبوك يتحرش بالأقوياء والضعفاء .

فصمت أدهم وازداد عبوسا فقال إدريس هازئا :

- لا تريد أن تتورط فى تجربه، هذا مكر من مكرك، ودليل على أنك مازلت تحلم بالعودة.

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر إليها باشمئزاز ثم قال:

- كيف سولت لك نفسك أن تسرح ذا الخيار الملوث! ألم تجد عملاً أشرف من هذا ؟

- إنى راض عنه .

- بـل اضـطرتك الحاجة إليه، على حين ينعم أبوك بالعيش الرغيد، فكر قليلا فى الأمر، أليس من الأكرم لك أن تنضم إلى .

فقال أدهم فى ضجر :

- لم اخلق لحياتك .

- انظر إلى جلبابى ! ان صاحبه يرفل فيه أمس دون وجه حق !

فلاح التساؤل فى عينى أدهم وقال :

- وكيف حصلت عليه ؟

- كما يفعل الأقوياء .

أسرق أم أقتل ؟ وقال بحزن :

- لا أصدق أنك أخى إدريس !

فقال وهو يقهقه :

- لا تعجب مادمت تعلم أننى ابن الجبلاوى.

فهتف أدهم فى نفاد صبر :

- هلا أوسعت لى الطريق؟

- كما تشاء لك حماقتك !

- وملأ جيبه بالخيار، وألقى عليه نظرة ازدراء، ثم بصق على العربة ومضى.

ووقفـت أميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ ، كانت الظلمة تغشى الخلاء، وفى داخل الكوخ شمعة تحترق كأ ا رمـق فى صدر محتضر ، أما فى السماء فالنجوم تزهر، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح عملاق، أدركت أميمة مـن صمته أنه على حال يستحسن معها تجنبه، قمت إليه وز ماء ليغسل أطرافه وجاءته بجلباب نظيف ، وغسل وجهه وقدميه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومد ساقيه، واقتربت منه فى حذر، فجلست وهى تقول بلهجة الاسترضاء:

- ليتنى اتحمل عنك بعض تعبك.

وكأ ا حكت أجرب فصاح :

- اخرسى يا أصل الشر والتعاسة .

فتزحزحت بعيدا عنه حتى كادت تختفى، ولكنه صاح :

- إنك خير من يذكرنى بغفلتى وحماقتى، ملعون اليوم الذى رأيتك فيه.

فجاءه فى الظلام انتحا ا ولكنه ضاعف من غضبه فقال :

- سحقا لدموعك ! إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك.

فجاءه صو ا الباكى قائلا :

- ىكل فول يهون بالقياس إلى عذابى .

- لا تسمعينى صوتك وأبعدى عن وجهى .

وكـور ثوبه المخلوع ورماها به فتأوهت قائلة: "بطنى!" وسرعان ما برد غضبه ، وأشفق من العواقف، وأنست هى من صمته تراجعا فقالت بصوت المتوجع :

- سأذهب بعيدا كما تريد.

وقامت فمضت تبتعد حتى صاح ا :

- هل تريب الوقت مناسبا للدلال ؟

ثم تحفز للقيام وهو يصيح :

- ارجعى لا رجعت إليك الراحة .

واحد بصره فى الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره إلى جدار الكوخ ورفع رأسه نحو السماء، وود لو يطمئن على بطنها ولكن أبت كبرياؤه ، أجل ذلك إلى اجل قريب.. ثم مهد له بقوله:

- إغسلى بعض الخيار للعشاء .

(١١)

مجلـس لا يخلـو مـن الـراحة ، لا نبت فيه ولا ماء ولا عصافير تزقزق فوق الغصون، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكـسة تكتـسى فى الليل حلة غامضة بخالها الحالم ما يشاء، وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم والمرأة داخل الكوخ والوحدة ناطقة والحزن كالجمر المدفون تحت الرماد، وسور البيت العالى يعاند المشتاق، وهذا الأب الجبار كيف السبيل إلى إسماعه انبينى ومن الحكمة نسيان الماضى، لكن ليس لنا من زمن غيره، لذلك كرهت ضعفى ولعنت نذالتى ورضيت الـشقياء رفيقا وسألد له أبناء، والعصفورة التى لا تصدوها فوة عن الحديقة أسعد من أحلامى وعيناى احترقتا شوقا إلى المـياه الجارية بين شجيرات الورد وأين عبير الحناء والياسمين أين، أين خلو اباب والناى أين، أيها القاسى، مضت نصف عام فمتى يذوب ثلج قسوتك؟

وعـن بعد ترام صوت إدريس مغنيا بصوت كريه: "عجايب والله عجايب"، وإذا به يوقد نارا أمام كوخه فاشتعلت كأ ـا شهاب هوى فانغرس فى الأرض، وكانت زوجة تذهب وتجىء ببطنها المتدلى لتقدم طعاما أو شاربا ولطمته موجة سـكر فصاح فى السكون موجها الخطاب إلى البيت الكبير: "هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة، اطفحوها سما يا أهل البيت"، ثم عاد إلى الغناء.

وقال أدهم لنفسه متأسفا: "كلما خلوت إلى نفسى فى الظام جاء الشيطان فاشعل ناره وعربد فأفسد على خلوتى"، وظهـرت أميمة عند باب الكوخ فعلم أ ا لم تنم على خلاف ظنه، وكانت من الحمل فى إعياء ومن الجهد والفقر على حال لا تسر ، وقالت برقة واشفاق:

- ألا تنام ؟

فقال فى ظهر :

- دعينى للساعة الوحيدة التى تطيب فيها الحياة.

- ستسعى بعربتك فى الصباح الباكر فما أحوجك إلى الراحة.

- فى وحدتى أرتد سيدا أو شبه سيد، أتأمل السماء واتذكر الأيام الخالية.

فتنهدت بصوت مسموع وقالت :

- أود لو رأيت أباك ذا ا من البيت أو راجعا إليه أن أرمى بنفسى تحت أقدامه وأن استغفره.

فقال أدهم فى جزع :

- قلت لك مرارا أن تقلعى عن هذه الأفكار، فليس ذه الوسيلة يمكن أن نسترد عطفه.

فصمتت مليا ثم قالت همسا :

- إن أفكر فى مصير الشئ الذى فى بطنى.

- ولا شغل لى إلا هذا رغم أنى لم أعد إلا حيوانا قذرا.

فتمتمت بحزن :

- والله إنك خير الرجال جميعا .

فضحك أدهم ساخرا وقال :

- لم أعد إنسانا، فالحيوان وحده هو الذى لا يهمه إلا الغذاء .

- لاتحزن ، كم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد فملك الدكاكين والبيوت.

- اراهن على أن أوجاع الحبل قد بلغت رأسك .

فقالت باصرار :

- ستكون رجلا ذا شأن وسينشأ وليدنا فى أحضان النعيم.

فضرب أدهم كفا بكف وتساءل ساخرا :

- أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش ؟

- بالعمل يا أدهم .

فقال فى سخط :

- العمــل مــن أجل القوت لعنة اللعنات. كنت فى الحديقة أعيش لا عمل لى إلا أن انظر إلى السماء أو انفخ فى الــناى، أما اليوم فلست إلا حيوانا أدفع العربة أمامى ليل ار فى سبيل شىء حقير نأكله مساء ليلفظه جسمى صباحا، العمل من اجل القوت لعنة اللعنات الحياة الحقة فى البيت الكبير، حيث لا عمل للقوت وحيث المرح والجمال والغناء.

وإذا بصوت إدريس يقول :

= نطقـت بالحـق يا أدهم، العمل لعنة، وهو ذل لم نعده، ألم أعرض عليك الانضمام إلى ؟التفت أدهم نحو الصوت فـراى شـبح غـدريس واقفا على قرب منه هكذا يتسلل فى الظام دون أن يشعر به فيتصنت إلى الحديث ما شاء له التنصت، ويشترك فيه إذا حلا له ذلك، ووقف أدهم منفعلا وهو يقول:

- عد إلى كوخك .

فقال إدريس بلهجة جدية مفتعلة :

- إنى مثلك أقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الإنسان ..

- إنك تدعونى إلى البلطجة وهى قذارة فكيف يعيش الإنسان ؟

فلم يرتح إلى محادثته فصمت، وانتظر إدريس أن يتكلم فلم يتكلم ، فقال :

- لعللك تريد رزقا بلا عمل؟ ولكن ذلك سيكون حتما على حساب الآخرين.

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول :

- أم لعلك تريد رزقا بلا عمل دون أن يضار به أحد؟

وضحك ضحكة كريهة وقال :

- هذه فزورة يا ابن الجارية ؟

- وصاحت اميمة بغضب:

- - عد إلى كوخك واخز الشيطان.

ونادته امرأته بحدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم : "عجايب والله عجايب".

وتوسلت أميمة إلى زوجها قائلة :

- تجنب الاشتباك معه بأى ثمن .

- أنى أجده فجأة فوق رأسى دون أن أدرى كيف جاء.

وساد صمت اتخذا منه مسكنا لانفعالهما. وعادت أميمة تقول برقة :

= قلـبى يحدثنى باننى سأجعل من كوخنا بيتا شبيها بالبيت الذى طردنا منه، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل، وسيلقى وليدنا فيه كل راحة ومتعة.

فوقف أدهم يبتسم ابتسامة لم ترها فى الظام، وقال ساخرا وهو ينفض التراب عن جلبابه:

- الخـيار القشطة، الخيار السكر ، والعرق يتصبب من جسدى والغلمان يتسلون بمعاكستى، والأرض تأكل قدمى فى سبيل ملاليم، ودخل الكوخ فتبعته وهى تقول :

- - لكن سيأتى يوم المرح والغناء.

- لو كنت تشقين ما وجدت وقتا للأحلام.

ورقد كل منهما على خيشه محشوة بالقش، وهى تقول :

- اليس الله بقادر على أن يجعل من جوخنا بيتا كالبيت الذى طردنا منه؟

فقال أدهم وهو يتثاءب :

- أمنيتى أن أعود إلى البيت الكبير .

ثم وهو يتثاءب بدرجة أعلى :

- العمل لعنة .

فقالت بصوت هامس :

- ربما ، ولكنها لعنة لا تزول إلا بالعمل !

(١٢)

وذات لـيلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهى تتوجع هاتة : "أه يا ظهرى .. أه يا بطنى ". فجلس من فوره وهو يحملق صو ا ، ثم قال:

- هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلى عن لا شئ ، اشعلى الشمعة.

فقالت وهى تئن :

- اشعلها بنفسك هذه المرة جد.

فقـام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهى حتى عثر عليها، فأشعلها، وثبتها على الطبلية، فبدت أميمة على الضوء الخافت جالسة متكئة على ساعديها، تئن، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة.

وقال الرجل بقلق:

- هذا ما تظنينه كلما شعرت بوجع.

فقالت بوجه متقلص :

- كلا ، أنا متأكدة أن هذه المرة جد.

وساعدها حتى أسند ظهرها إلى جدار الكوخ ثم قال :

- هو شهرك على أى حال ، تجلى حتى أذهب إلى الجمالية لأحضر لك الداية.

- صحبتك السلامة، ما الوقت الآن ؟

مضى أدهم خارج الكوخ، وجعل ينظر إلى السماء، ثم قال :

- الفجر قريب، لن أغيب إلا مسير الطريق.

واندفـع يسير على عجل نحو الجمالية، ثم عاد يشق الظلام وهو قابض على يد الداية العجوز ليهديها السبيل، وعند اقتـرابه من الكوخ ترامى إليه صراخ أميمة الذى مزق السكون، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى تشكت الداية، ودخلا الكوخ معا، فخلعت المرأة ملاء ا وهى تقول أميمة ضاحكة:

- جاء الفرج، وما بعد الصبر إلا الراحة.

وسألها أدهم :

- كيف حالك ؟

فقالت فى صوت كالأنين :

- أكاد أموت من الألم، جسمى يتفكك ، وعظامى تنكسر، لا تذهب . فقالت الداية:

- بل ينتظر فى الخارج بسلام.

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحا واقفًا عن قرب عرفه قبل أن يتبينه، فانقبض صدره، ولكن إدريس قال مصطنعا لهجة الأدب :

- جاءهـا الطلق؟ مسكينة، مرت زوجى بهذه الحالة كما تعلم منذ زمن قصير، إنه ألم كاذب لا يلبث أن يزول، ثم تتلقى نصيبك من عالم الغيب كما تلقيت هند، إنها طفلة ساحرة ولكنها لاتكف عن التبول والبكاء . تجلد.

فقال أدهم على مضض وضيق :

- الأمر لصاحب الأمر .

فصدرت عن إدريس ضحكة خشنة وتساءل:

- جئت لها بداية الجمالية؟

- نعم .

- امرأة قذرة ، طماعة ، جئت بها أيضا فغالت فى تقدير أتعابها فطردتها، ومانزال تدعو على كلما رأتنى مارا ببيتها.

قال أدهم بعد تردد :

- ما ينبغى أن تعامل الناس هكذا .

- يـا ابن الأكابـر، علمنى أبوك أن اعامل الناس بالفظاظة والقسوة، وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هى صدى للتمزق الذى يقع فى جوفها، فانطبقت شفتا أدهم على ما هم بقوله، واقترب من الكوخ قلقا، وهتف بصوت رفيق:

- شدى حيلك .

فردد إدريس قوله بصوت مرتفع :

- شدى حيلك يا امرأة أخى .

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت، لكنه دارى حنقه قائلا :

- يحسن بنا أن نقف بعيدا عن الكوخ .

- تعال بنا إلى كوخى أقدم لك الشاى، وترى هند وهى تغط فى النوم .

لكـن أدهم ابتعد عن كوخه دون أن يتجه نحو كوخ الآخر، وهو يلعنه فى سره فى غيظ مكتوم، فتبعه إدريس وهو يقول :

- ستكون أبا قبل طلوع الصبح، إنه تغير خطير، من فوائده أن تشعر بالرابطة التى يمزقها أبوك فى يسر وبلادة

فنفس أدهم عن ضيقه بقوله :

- هذا الكلام يضايقنى.

- ربما ، لكن لاهم لنا غيره .

فسكت أدهم مترددا ، ثم قال بشئ من الإشفاق:

- إدريس، لماذا تتبعنى وأنت تعلم ألا مودة بيننا؟

فقهقه غدريس عاليا وقال:

- يا لك من طفل قليل الحياء، لقد أيقظنى صراخ زوجك من أحلى نومه فلم أسمح لنفسى بالغضب، وعلى العكس جئت لأقدم لك المعونة إن كنت فى حاجة إليها، وأن أباك ليسمع الصراخ كما سمعته لكنه عاود النوم كمن لا قلب له .

فقال أدهم فى ضجر :

- حسبنا ما كتب لنا من مصر، ألا تستطيع أن تتجاهلنى كما أتجاهلك ؟

- إنك تكرهنى يا أدهم لا لأننى كنت السبب فى طردك ولكن لأننى أذكرك بضعفك، إنك تكره فى نفسك الآثمة، أنا فلم يعد لى من مبرر لكراهيتك، بل أنت اليوم عزائى وتسليتى، ولا تنس أننا جيران، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء، وسيدب عليه أولادنا جنبا إلى جنب.

- إنك تتلذذ بتعذيبى.

فصمت إدريس مليا حتى مى أدهم نفسه بالخلاص، ولكنه عاد يسأل بلهجة جدية:

- لماذا لا نتفق؟

فقال أدهم وهو يتنهد :

- لأننى بياع على قد حالى وأنت رجل هوايتك الضرب والاعتداء .

وعاد صراخ أميمة يعلو ويشتد فرفع أدهم رأسه متوسلاً، فأدرك من توه أن كثافة الظلام قد خفت، وأن الفجر تسلق الجبل، وهتف أدهم:

- ما ألعن الألم !

فقال إدريس ضاحكا :

- ما أجمل الرقة، خلقت لإدارة الوقف والنفخ فى الناء.

- اسخر ما شئت ، إنى متألم.

- لماذا ؟ حسبت امرأتك هى المتلأمة !

فصاح أدهم من فرط جزعه:

- دعنى وشأنى .

فتساءل الآخر فى هدوء مغيظ :

- أتريد أن تصير أبا بلا ثمن ؟

فلزم أدهم الصمت وهو ينفخ فقال إدريس متعاطفا:

- أنـت حكـيم، وقد جئت أعرض عليك عملا تستعين به على إسعاد المخلوفات القادمة ، إن هذا الذى نسمع مقدمات تشريفة الأول وليس الأخير، فإن شهواتنا لا تقنع إلا بأن تبنى فوقنا تلاً من الذرية الصاخبة، ما رأيك؟

- الضياء يلوح فاذهب لتستوفى نومك .

وتعالى الصراخ، متتابعا متواصلا حتى ضاق أدهم بموقفه فرجع إلى الكوخ الذى شق عنه الظلام، وبلغه وأمية ترسل تنهدة عميقة مثل ختام أغنية حزينة اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل:

- كيف الحال عندكم ؟

فجاءة صوت الداية وهو يقول : " انتظر"، تحفز قلبه للارتياح عندما خيل إليه أن الصوت يوحى بالظفر، ومالبث أن لاحت المرأة فى الباب وهى تقول :

- رزقت بذكرين .

- توامين ؟

- فليرزقك الله برزقهما .

وصحت أذنيه ضحكة إدريس من وراء ظهره وسمعه يقول :

- إدريس الآن أب لأنثى وعم لذكرين.

ومضى نحو كوخه وهو يغنى : "البخت والقسمة فين يادى الزمان قلبى" وعادت الداية تقول :

- ترغب الأم فى أن يسميا قدرى وهمام .

فراح أدهم يغمغم وقد استخفه السرور.

- قدرى وهمام ، قدرى وهمام .

(١٣)

قال قدرى وهى يجفف وجهه بذيل جلبابه :

- فنجلس لتناول طعامنا .

- فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب .

- نعم سرقنا الوقت .

تـربعا علـى الرمال تحت سفح المقطم، وحل همام عقدة المنديل الأحمر المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكرات، وراحا يأكلان وينظران بين حين وآخر نحو أغنامهما، التى هام بعضها على وجهه، وقعد البعض ليجتر فى راحة وسلام، لم

يكـن ثمة ما يميز بين الشقيقين فى الملامح والقسمات، غير أن نظرة الصائد المتجلية فى عينى قدرى أضفت على سحنته حدة ميزته بطابع خاص، وعاد قدرى يقول وهو يطحن الطعام المحتشد فى فيه :

- لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا اغنامنا مرتاحى البال.

فقال هماما باسما :

- ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغارى والحسينية، ومن الممكن ان نصادفهم فنتقى شرهم.

فضحك قدرى ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال:

- هذه الحوارى عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات. لكن ..

- لا لكن يا ابن إبى ، أنى أعرف طريقة واحدة، وهى أن اجذب الرجل من جلبابه وانطحه فى جبينه فينقلب على وجهه أو على قفاه .

- لذلك لا نكاد نحصى أعداءنا .

- ومن كلفك بإحصائهم؟

وتابـع همـام جـديا أو غل فى الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف وادار عائدا فى صمت الحكيم وانتقى عودا من الكرات ومسحه باصابعه فدفعه فى فيه متلذذًا ، ثم قال وهو يتمطق:

- ولذلك تجدنا وحدنا ، ويمضى الوقت الطويل دون أن نتكلم .

- وما حاجتك إلى الكلام وأنت تغنى طوال الوقت؟

فنظر همام إليه بثقة وقال:

- يخيل إلى أنك تضيق ذه الوحدة أحيانا.

- ساجد دائما عللا للضيق، الوحدة أو غيرها .

وسـاد صـمت وضح فيه التمطق، ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف، تسير على غناء ، منشد كالحادى والآخرون يرددون فقال همام:

- هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا، ولو ذهبنا شمالاً أو جنوبا، فأغلب الظن أن لن نعود.

فضحك قدرى ضحكة مجلجلة وقال :

- سنجد فى الشمال وفى الجنوب أناسا يودون قتلى، ولكن لن تجد واحدا يجرؤ على منازلتى.

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام :

- لا يمكـن إنكار شجاعتك، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخفية رغم مابيننا وبينه من خصام.

- فعقد قدرى ما بين حاجبيه احتجاجا ، ولكنه لم يجهر بمعارضة واتجه بصره نحو البيت الكبير الذى لاح عن بعد فى الغروب هيكلا ضخما مطموس المعال، وقال :

- هـذا البـيت ! لم أشـهد له مثيلاً، فى خلاء بكتنفه من جميع النواحى ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والمشاكسة ، صاحبه جبار بلا جدال، هذا الجد الذى لم ير أحفاده وهم على بعد ازرع منه!

فاتجه بصر همام ناحية البيت، ثم قال :

- إن إبانا لا يذكره إلا مصحوبا بالاجلال والإكبار.

- وعمنا لا يذكره ألا مصحوبا باللعنات.

فقال همام باشفاق :

- هو جدنا على أى حال .

- ومـا جدوى ذلك يا غلام؟ إن أبانا يكدح وراء عربته، وأمنا تكد طوال النهار وشطرا من الليل، ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة، أما هو فقابع وراء الأسوار، بلا قلب، متمع بنعيم لا يخطر على بال .

فـرغا من الطعام ، نفض همام المنديل ولفه ثم دسه فى جيبه، واستلقى على ظهره متوسدا ذراعيه، مرسلاً ناظريه إلى السماء الصافية، وهى تفطر هدوء المغيب، والحداى تولى فى الآفاق، و ض قدرى فانتحى جانبا ليبول، وقال:

- يقـول أبـونا إنه كان يخرج كثرا فى الماضى فيمر م فى ذهابه وإيابه، أما اليوم فلا يراه أحد، وكأنما يخاف على نفسه .

قال همام بنبرات حالمة:

- كم تمنيت أن أراه .

- لا تحلم بأن ترى شيئا خارقًا، ستجده شبيها بأبينا أوبعمنا، أو بكليهما معا، إنى أعجب لوالدى كيف لا يذكره إلا بالإجلال رغم ما ناله على يديه.

- الظاهر أنه كان شديد التعلق به ، او أنه امن بعدالة ما نزل به من عقاب.

- أو أنه مازال يطمع فى عفوه !

- أنك لاتفهم أبانا، إنه رجل ودود العشر .

عاد قدرى إلى مجلسه وهو يقول :

- إنـه لا يعجبنى، وأنت لا تعجبنى ، أؤكد لك أن جدنا شخص شاذ لا يستحق الاحترام، ولو كانت به ذرة من خير ما جفا لحمه هذا الجفاء الغريب، إنى أراه كما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر.

فقال همام باسما :

- لعل أرذل ما فيه هو ما تتباهى به أنت ، أعنى القوة والبطش.

فقال قدرى بحدة :

- لقد نال هذه الأرض هبه بلا عناء ثم طغى واستكبر.

- لا تنكر ما أعترفت به منذ قليل أن الوالى نفسه لم يكن بوسعه أن يعيش وحده فى مثلا هذا الخلاء.

- وهل تجد فى الحكاية التى رويت لنا مسوغا حقا لغضبه على والدينا؟

- إنك تجد أهون منها سببا كافيا للبطش بالناس !

تناول قدرى الكوز ومضى يشرب حتى روى، ثم تجشأ وقال :

- ما ذنب الأحفاد ؟ أنه لايدرى ما رغى الغنم، سحقًا له، أود لو أعرف وصيته، وماذا أعد لنا؟

فتنهد همام وقال بصوت حالم :

- ثروة تربح من العناء، كى يفرغ المرء لقلبه، ويمضى العمر فى يسر وطرب.

- أنــك تــردد قول أبينا نشقى فى التراب والطين ونحلم بالناى فى ظل حديقة غناء، الحق أقول إنى أعجب بعمى أكثر من أبى.

فجلس همام وهو يتثاءب ثم نهض يتمطى، وقال:

- على أى حال صرنا شيئا ، لنا مأوى يسعنا ورزق يحفظ علنيا الحياة ، وأغنام نرعاها، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها أيضا، ومن شعرها تغزل أمنا الكساء.

- والناى والحديقة ؟

فلــم يجب، واتجه نحو الأغنام بعد أن تناول عصاه الملقاه عند قدميه، ووقف قدرى، وصاح موجها خطابه إلى البيت الكبير فى عبث :

- أسمحت بأن نرثك أم ستعاقبنا فى موتك كما عاقبتنا فى حياتك؟

أجب يا جبلاوى .

وردد الصدى : "أجب يا جبلاوى ".